إبراهيم درغوثي

# وراء السراب.. قليلاً



رواية



# وراء السّراب ... قليلاً

رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆


رئيس المركز

**على عبد الحميد**

مدير المركز

**محمود عبد الحميد**

**مركز الحضارة العربية**

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

إبراهيم درغوثي

# وراء السراب... قليلاً

رواية



الكتاب : وراء السّراب ... قليلاً
روايـــــة

الكاتب : إبراهيم درغوثي
(تونس)

الناشـر : مركز الحضارة العربيــــة

الطبعة العربية الثالثة : القاهرة 2005

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١٩٧٦٩
الترقيم الدولي، I.S.B.N.977-291-612-6

الغلاف :
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيــــذ : ســـيد حـــرزاوي

## إهداء

إلى صهري : محمد بن فطّوم
وإلى رفاقه عمّال المناجم

في قفصة،
وفي تونس،
وفي كلّ بقاع الأرض.

# فاتحة

...وفي الصَحراء قال الغيبُ لي:

اكتُبْ

فقلت: على السّراب كتابة أخرى

فقال: اكُتب ليخضرّ السّراب.

فقلت: ينقُصُني الغيابُ

وقلتُ: لم أتعلّم الكلمات بعدُ.

فقال لي: اكتب لتعرفها

وتعرف أين كنتَ، وأين أنتَ

وكيف جئت، ومن تكون غدًا،

ضَع اسمك في يدي واكتبْ

لتعرفَ من أنا، واذهب غمامًا

في المدى...

فكتبت: من يكتب حكايته يرثْ

أرضَ الكلام، ويملْكِ المعنى تمامًا!

**محمود درويش**

من ديوان: «لماذا تركت الحصان وحيدًا».

# تنبيه

الإهداء، والفاتحة، وعناوين الفصول،
والحواشي وما جاء في الأبواب من تعليقات
وتفسير وشرح قد يبدو فيه للقارئ كثير من
لحشو والتقعّر، هو من وضع الكاتب ولا دخل
فيه لسارد/لساردي هذا النّص

لهذا وجب التّنبيه.

# الفصل الأول

باسمك اللهم أدخل
هذه القرية آمناً.

# الباب الأوّل

*وفيه حديثٌ عن عودة «عزيز امّه» إلى «عتيقة»(*) التي غادرها وهو شاب للعمل في مناجم الفسفاط التي حفرها الرومان في «قَرْطْ حدَشْتْ»(**) بعد الاستعمار الجديد لبلاد «إفريقية» في عهد مولانا المعظّم علي باشا باي دام عزّه.*

*وأخبار عن العذابات التي سامها باي المحال لوالد «عزيز» وما لاقاه الأهالي من تنكيل يشيب لهوله الولدان.*

التفت «عزيز السلطاني» يبحث عن عجوزه. رآها واقفة فوق قاعدة تمثال الجدّة في وسط الحوْش. اقترب منها فسمع نهنهتها ورآها تعضّ على قماش تنّورتها القطني وتبكي. أمسك بيدها الصّغيرة وأنزلها برفق من فوق قاعدة التمثال وقادها إلى الغرفة الشرقية التي أعاد تأثيثها بما يكفي عجوزين. أنامها على السرير، وجلس قربها على حافة الفراش يستمع إلى لُهاثها، وأنينها المتقطّع.

**أعرف أنّ الرّجاء والتّعنيف لن يفيدا في إسكاتها. وأعرف أنها لن تعود إلى الهدوء إلا إذا وضعتُ جمرة فوق جبهتها وترقّبت إلى أن تكويها النار، فيرتعد جبينها، وتأخذها قشعريرة في كامل بدنها، ثم تهمد وتنام كما ينام أصحاب الكهف، تدخل في نوبة من السبات قد تطول عدة أيام ثم تفيق وحدها عندما ينادي المؤذن لصلاة الصبح.**

---

(*) عتيقة: من اللغة الفينيقية وتعني القديمة.

(**) قرْط حدشْت: تعني المدينة الجديدة بنفس اللغة.

**هي هكذا دائمًا فكأنّ ناقوسًا يسكن رأسها ليدقه مع انبلاج الفجر.**

صوت المؤذن يرتفع عاليًا، حنونًا، دافئًا ويصعد على درجات من نور إلى السماء السابعة لا يُزعجه سوى خشخشة جهاز التّسجيل. والمرأة النائمة قبالة «عزيز» على السّرير تفتح عينيها وتعود إلى الحياة فتذهب إلى وسط الحوْش لتُغرق رأسها في حوض الماء البارد ثلاث مرات ثمّ تنزع عنها الثّياب وتصبّ الماء على أمّ رأسها صبًا متواصلاً ليغمر كامل بدنها ويتحوّل إلى بركة صغيرة تخوض فيها برجْليها الحافيتين.

وتحطُّ طيور الصباح على رأسها وعلى كتفيها وهي تُسَبِّحُ الباري بآلاف الأصوات ثمّ تنزل على الأرض لترتوي من ماء الجنّة.

وتختطف المرأة دَلْوًا ترمي بها في قعر بئر مهجورة. والبئر التي تفتح على ماء زمزم جافّة منذ عشرات السنين وقعرها يابس كباطن الكفّ. ولكن الدّلاء التي ترمي بها المرأة في جوفها تنزل فارغة وتصعد ملأى بالماء الزُّلال.

وتواصل المرأة طقوسها العجيبة. تتطهّر بالماء إلى أن يشقّ قرص الشمس جبهة السماء. فتذهب تحت نخلة الأجداد. تدور تحتها بلا مَلَل وهي تُتَمْتِمُ بصلاة حفِظتها من العبيد الذين تربّت بين طُبولهم. تدور حول النخلة ساعات طوالاً إلى أن يهدّها التعب فتخفت حركتها وتفتر همهمتها وتسقط على الأرض من الإعياء.

ويجفّ ماء البئر مرة أخرى. ويعود قعرها يابسًا كالأرض اليباب. فتطير الطيور عائدة من حيث جاءت. ويقف الرجل في وسط الحوش ماسكًا برأس عجوزه بين يديه. يجفّفُ لها شعرها ووجهها ويرمي على بدنها بقايا كسوة قديمة مطرزة بخيوط الذهب ويعود بها إلى الدار الشرقية يُجلسها على كرسيّ أمام طاولة فَتَبْتَلع لُقيمات قليلة من الخبز المغموس في العسل. وتشرب جرعة ماء ثم تتشهد وتحمد الله على السلامة.

**هي هكذا دائمًا منذ علقت روحها روحي.**

يوم مات أبوها - وكانت بنت عشر وثلاث - رماها والدي ورائي فوق صهوة الحصان وقال:

- زوّجتك «فاطمة» ابنة عمّك يا ولدا هي حلالك منذ هذه اللحظة فحافظ عليها كما تحافظ على نور عينيك ولا تفجعني فيها فجيعتي في والدها.

ولكنّ الجواد الذي كنت أتدرّب على ركوبه لكزة خفيفة فعدا خَبَبًا. وخاصرتني البنت فرقّ قلبها وراء ظهري وخفق كرفّ الحمام المفجوع. ليلتها، ليلة بنيتُ بفاطمة، كان أبي يجهز عمّي للدفن ويجمّع الفرسان للثأر ويلمّع السّيوف لقطف الأرواح.

وبارك الجميع زواجي. جدّتي وحدها رفضت أن تضع يدها على رأسي قبل أن أدفع مهر «فاطمة».

وذهبت إلى دارها.

أخرجت من صندوقها سيفًا صقيلاً وجاءت تتوكأ على مقبضه. وضعت الجدّة السيف بين يديّ وقالت:

- هذه هدية عرسكما يا «عزيز»!

ودخلت في الظلام.

في الصباح، أفاق العريس فوجد مكان «فاطمة»، باردًا وسمع نواح الجدّة وبكاء نساء الدّار وعويل العبيد فدكّته الفاجعة.

قفز من السّرير وجرى وراء خطوات البنت، قادته الخطوات المرتبكة خوفًا وَوَجَلاً إلى الجبّانة فرأى «فاطمة» وسط حلقة الرجال تُتهنهُ بصوت خافت.

وارتفع صوت الإمام فوق أصوات بقية القراء.

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وقبل أن تنفرط الحلقة التي تجمّعت حول القبر ويركب الرجال خيولهم المُحمحمة ويلوّحون ببواريدهم والسيوف، انطلقتْ «فاطمة» تجري نحو القبر. رفست التراب المبلول برجليها وتمرّغت على الأرض وهي تصيح بصوْت جرْو مضروب.

وسالت دموعها مخلوطة بالكحل على خديها المكتنزين.

وتعفّر ثوب العُرس المطرز بالعدس الملون والودع وبخيوط الذهب.

في الأول، ألجمتْ المفاجأة الفرسان والمشاة الذين جاؤوا يشيّعون قائدهم إلى الحفرة التي طلب منهم أن يجعلوه ينام فيها حينًا من الدهر، قريبًا من مرقد الجد الكبير، فتركوها تحفر بأظافرها وتقلب التراب على رأسها ثم انقضّوا عليها. حاصروها من كل الجهات فلم تستسلم بسهولة، وواصلت خوض المعركة، خمشًا في الوجوه وعضًا وسبًا مولولة: أبي لم يمت! وهأنذا أرقص أمامكم برجل واحدة. اسمعوا دقة الخلخال ورنة الذهب وتعالوا شاركوني الرقص، فقد زفتني الجدة البارحة، عروسًا لحفيدها.

وظلت تقفز فوق القبر كالمجنونة إلى أن شلّ الإمام حركتها. وضع يده على رأسها وراح يقرأ:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [ الأعراف: ٤٢ - ٤٤ ].

وراح الإمام يُردّد هذه الآيات إلى أن أغمضتْ «فاطمة» عينيها، ونامت واقفة، فدسها أحد الأعمام في حضنه وقال وهو يهمّ بمغادرة المقبرة:

- ادفع مهر «فاطمة» مائة من رؤوس الأعداء! لن أقبل أقلّ من هذا المهر يا «عزيز».

وواجه صهيل الخيل وهمهمة الفرسان العريس الصغير. وقدم له سائس حصانه فقفز على ظهره خفيفًا كالريشة. كانت رجلاه تصلان إلى الركّاب بمشقّة.

والخوذة الثقيلة تخنقه.

واللجام الخشن يحزّ أصابعه حزًّا.

ولكنه كان فرحًا. يكاد يطير من النشوة؛ فهذه المرة الأولى التي يقود فيها الفرسان.

صاح: سأصبح طليعة باي المحال وراء الجبل وسأدفع أكثر مما تطلب يا سيّدي!

وغطى النّقْع ما بين السماء والأرض في هذه الصّحراء الوسيعة.

* * *

نامت العجوز باكرًا فأخرج «عزيز» من خزانة في الحائط مصاحفه. صفّها أمامه على طاولة كبيرة ثمّ اختار منها مصحفًا برواية الإمام «ورش». فتح «الكتاب» كما اتفق فطالعته سورة «النحل» فقرأ:
﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وشدته الآية فواصل القراءة: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾.

حاول أن يتذكر أول مرة استمع فيها إلى هذه الآيات فخانته الذاكرة. ابتسم لنفسه وعزّاها. وأغلق المصحف ثم ظل مدة يتملّى الزخرف الذي يغطّي الغلاف المجلد إلى أن هاجمه النّوم فقام ليستلقي بجانب عجوزه. كان بين اليقظة والنّوم حين دوّي في أذنيه صوت بوق حربي وهزه صهيل الخيل والضجة المكتومة لجيش قادم من بعيد. وبدأت ترتسم في مخيلته

صورة غائمة لفارس يجوبُ الصّحراء.

الفارس ينفخ في نفير فيتجمّع حوله خلق كثير من «عتيقة» ومن النواحي القريبة والبعيدة عنها فيحدّثهم عن المحلّة التي بعث بها «باشا» تونس لتؤدب «سلطان عتيقة» ولتثأر لكرامة التركمان الذين ذُبحوا قبل أن يجمعوا الإتاوات والمكوس لخزانة «الإيالة» وصناديقها الفارغة. ويملأ الضجيج الكون «هَالْبَايْ مَنْ بيّاهْ؟!».

ويقف حصان قائد «المحلة» على الرّبوة المطلة على القرية فتسحره خضرة النخيل.

آلاف وآلاف من الشجرة المباركة تمتد على مرمى البصر. بحر داكن من خضرة الزّمرّد يسحر العين ويملأ القلب بالغبطة.

«سأجعلكم تدفعون «ريالاً» ذهبيّا عن كل واحدة من هذه الأشجار المباركة. وستعرفون أن هذا السيف بيّاني يا أولاد الكلب!».

ويصيح القائد والنشوة تهزه.

- حاصروا هذه القرية المارقة يا أصحابي. حاصروها حتى الموت!

ويبث عيونه في كل مكان يسدون منافذ الخروج على المُتمترسين وراء الأسوار.

وانتشر جُند المحلة ومن صاحبها من العُيّاق والسّراق والمارقين على القبائل في غابة النخيل فأفسدوا كل شيء صادفهم في طريقهم:

قطعوا عراجين البلح. ودمروا سواقي الماء. وسرّحوا خيولهم في مساكب الفصّة والبرسيم. وذبحوا الخرفان. وسكروا. وعربدوا وغنّوا أغانيهم الفاجرة ثم وقفوا وراء الأسوار يترقبون أوامر القائد. وطلب الأشراف مقابلة «الباي» فردّوا على أعقابهم. قال لهم: لقد أبحت لجندي وَاحَتكم سبعة أيام ولن أكلم اليوم إنسيّا.

فعادوا والحسرة تقطع قلوبهم بعد أن رأوا جِنَانهم وهي تتحوّل إلى خراب.

في اليوم السابع، اعتلى مُناد من جند «الباي» رأس نخلة تشرف على القبة وصاح بصوت جهوري طالبًا من الوجهاء تسليم أنفسهم.

قال: اخرجوا منها حفاة، حاسري الرؤوس.

وأمهلهم ثلاثة أيام.

داخل الأسوار كان الصراع شديدًا بين المدافعين عن فكرة تسليم المدينة إلى قائد الجيش دون الدخول معه في صراع كفّته مائلة من الأول للمُحاصرين، وبين من يرغب في الدفاع عن شرف النخلة الواقفة تحت لهيب النار.

وامتد الحوار واشتد، وطال بذيء الكلام عمائم الشيوخ وأنوف الفرسان. وطاش حَب البواريد في بعض جهات المدينة. وكادت تقع فتنة لولا أنْ حسم الشيخ بدر الدين إمام الجامع الموقف. قال: سأخرج غدًا للتفاوض مع قائد المحلة.

في الصباح، قبل طلوع الشمس، خرج جماعة من الأشراف قاصدين خيمة القائد. اعترضهم جند الحراسة في الطريق ففتشوهم وأخذوا أسحلتهم وتركوهم أمام الباب مدة طويلة ثم أذنوا لهم بالدخول. لم يقف القائد لتحيتهم ولم يردّ على سلامهم حين طرحوا السلام. وظل الرجال واقفين تحف بهم النظرات الشامتة من جميع الجهات. ولما يئسوا من الرحمة قال القائد:

- كيف تجرؤون على عصيان «سيدنا» وتستبيحون دم جنده وتتسترون على العصاة المارقين على سلطانه وطاعته؟

وحين همّ الشيخ بالكلام، رفع في وجهه إصبعًا مهددًا:

- لا حديث لي معكم الآن. عودوا إلى سيدكم واطلبوا منه أن يفتح السور وأن يسلم لي كل من شارك في قتل واحد من جنود «سيدنا» وإلاّ فموعدنا الليلة.

قال الشيخ الإمام:

- سيدي! سنسلمك المدينة! لكن لنا بعض الشروط!

فرد عليه هازئًا:

- اذهب من هنا قبل أن آمُرَ بسلخ جلدك وحشوه بالتبن ورمي لحمك للكلاب الجائعة.

وترقّب القائد الجواب.

ولكن الأبواب ظلّت مغلقة.

واشتدّ وهج الشّمس حتى كادت أرواح الجند تفيض.

ورأى القائد طيورًا سوداء، شبيهة بالغربان تحطّ على الأسوار وتملأ المكان نعيبًا فقرر الهجوم مع هبوط الظلام.

* * *

عند منتصف الليل سمعت دقًا عنيفًا على الباب الكبير. وكان لقصرنا عدّة أبواب: باب للخدم والعبيد والفلاحين، وباب للحريم، وباب لأكابر القوم. كان هذا الباب لا يُفتح إلاّ في المناسبات المهمة، زيارة باي المحال أيّام كان صديقًا لوالدي أو استقبال الحجيج العائدين من مكة أو تحية للفرسان المنتصرين في غارة.

أفقت مذعورًا وأرهفت السّمع. كان الدقّ بالتأكيد على باب الأكابر. وأفاق الإخوة الصّغار. نفضنا عنّا الأغطية وجرينا داخل السّقيفة نستطلع الخبر.

نظرت من وراء شقوق الباب فرأيت رجلاً ضخمًا على ظهر حصان يحمحمُ.

وقف الرجل يدقّ الباب بقبضة سيف وهو يصيح بين الحين والآخر بنداء أجشّ:

- افتح يا «سلطان» أنا لا أريد بك شرًا!

ورأيت وراء الرجل ظلالاً تتحرّك وسمعت همهمة، وزفير دواب فجريت إلى المطلع المؤدي للسطوح. صعدت في الدرجات قفزًا فوجدتني

أشرف على الساحة العامة.

التفتّ ذات اليمين وذات الشمال فرأيت وجوه رجالنا كالحة. كانوا صامتين. وكانت عيونهم تبرق كعيون الذئاب.

وامتلأت الساحة بالجنود المدججين بالسلاح.

رأيت باي المحال يشير إليهم بإصبعه فدكّوا الباب بجذع نخلة.

حركوا الخشبة جيئة وذهابًا ثم قذفوا بها الباب فانفتح على مصراعيه، فبرقت عيون الجند حمراء كعيون الشياطين.

ورأيت السماء تتفتح وينهمر منها سيل من الشُّهب أنار الفضاء، حتى كأنّ آلاف الشموس انفجرت في لحظة واحدة.

وعوى الجنود وهم يتدافعون ويتصايحون قبل أن يندفعوا داخل السّقيفة. تريثوا لحظات ثم هجموا بعنف سبعة رياح.

تصدّى عبيدنا للمهاجمين. رموهم بالحجارة الكبيرة وسكبوا عليهم الزيت الحار كنار الجحيم فولوا الأدبار وجلودهم تلتهب ثم كرّوا مرة أخرى بعد أن غطّوا رؤوسهم بالجلود.

رمى العبيد بأنفسهم على الجنود ولكن العصي الغليظة والسيوف التي تسلحوا بها كانت تسقط على الأرض مضرّجة بدمائهم.

كانت الأيدي المقصوصة من الأكتاف تضطرب اضطراب الأرواح الملعونة ثم تهمد إلى الأبد. وكانت أرجل المتحاربين تركل الرؤوس التي تعترضها في معابر القصر وترمي بها في كل الاتجاهات.

وامتلأ القصر بالأشلاء وصاح أبي آمرًا عبيده بالكف عن المقاومة. ووصل جند الباي بقر البطون وجدع الأنوف والتمثيل بالقتلى إلى أن لعْلعَ صوت بارودة أبي في الفضاء فارتبك الجند لحظة أصاب رذاذ البارود وجوه بعضهم ثم عادوا يعبرون فوق الجثث التي تكدست في طريقهم. قصدوا الغرف الموصدة من الداخل بمزاليج خشبية فحطموا أبوابها بأرجلهم وأيديهم وتفرقوا داخلها يبحثون عن الذهب والفضة. مزقوا

عقود العقيق من أعناق النساء وافتكّوا منهن الخواتم والأساور والخلاخيل الذهبية. واغتصبوا اللاّتي حاولن الامتناع وراء صراخ الصبيان والبنات جهارًا، تحت أنظار الغالب والمغلوب.

ووصل القائد فهنأهم بالنصر العظيم وطلب منهم التجمّع أمام القصر.

في الساحة، نصب الجند سُرادقًا عظيمًا للأمير. زيّنوه برؤوس القتلى. وجيء بـ«سلطان» مكبلاً بالأغلال، مكسوًا بالدم الذي تيبس على جبينه وعلى عنقه ولكنه كان يمشي منتصب القامة، مزهوًّا كأنّه المنتصر. ومشى وراءه العبيد والأسرى. قادهم الجند إلى خيمة وجدوا فيها الأمير وحاشيته.

صاح الأمير في وجه «سلطان»:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وانخرط في ضحك هستيري وهو ينكت بعصاه رؤوس القتلى... ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ وعاد إلى الضحك المجنون ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾.

ونادى الشيخ الإمام فجاء يتعثر في خطاه. قال له وهو يضع بين يديه سيفًا وصرّة نقود ذهبية:

- ما حُكم الشرع في هذا المارق عن سلطة «مولانا» يا شيخ الإسلام؟

ولمّا طال سكوت الشيخ قال له:

- أظن أنّك ستحكمُ عليه بالموت! أليس كذلك؟

فطأطأ الشيخ رأسه.

وانتهز باي المحال هذه الحركة ليصيح:

- حكمت عدالة السماء على «سلطان» هذه البلاد، الخارج عن ملة الإسلام وعن «سيدنا» الباي بالموت على رؤوس الأشهاد. والله على

ما أقول وكيل.

وركب الشيخ بغلته وانصرف.

فاعتلى قائد الجند دكّة ونادى:

- بَاشْ شاوشْ! احضر لي حدّاد المحلة!

والتفت إلى حرّاسه وطلب منهم أن يخنقوا الأسرى والعبيد.

قال لهم: مرّروا على الحبال قطعًا من الصابون حتى تدخل عميقًا في الأعناق.

وجيء بالأسرى والحبال. وصار الحرس يخنقونهم واحدًا بعد الآخر ويدفعون بالمخنوق على الأرض فينتفض مدة ضاربًا بيديه ورجليه في كل الاتجاهات ثم يهمد وتخفت حركته.

آخر المخنوقين كان عبدًا ضخم الجثة، طويل القامة، كبير الرأس.

قال الحرس لقائدهم إنه قتل منهم ثلاثة رجال.

فقال لهم: سأجعله عبرة لمن يعتبر.

وطلب منهم أن يخنقوه بحبل قصير وأن يطلقوه في السّاحة دون أن يربطوا يديه ورجليه بالحبال.

وقاوم الرجل مدة طويلة، حمى عنقه بساعديه القويين. وضرب المهاجمين برأسه فأسال كثيرًا من دمهم ولكنهم تكاثروا عليه فطرحوه أرضًا وشلّوا حركته ثم ربطوا حبلاً حول عنقه وشدّوا الحبل بعنف كبير وقاموا.

أحس العبد بنفسه خفيفًا فانتفض وقام واقفًا. مدّ يديه إلى عنقه محاولاً فك عُقد الحبل، فلم يستطع. فجرى صوّب باب القصر. قطع مسافة قصيرة ثم هوى على الأرض وقام من جديد. كانت العينان قد انفجرتا وكان البول يسيل بين فخذيه فخرّ على ركبتيه، ارتجف مدة قصيرة. ومات...

ووصل الحدّاد فذهب راسًا إلى «الباي». طلب منه «سيّدُه» أن يقترب وأسرّ له ببعض الكلمات. ردّ الحدّاد بالسمع والطاعة وأمر بإخراج

«سلطان» من الخيمة. جاء الرجل يحجل. وما أن اقترب منه حتى سدد له ضربة قوية بمطرقته. هشمت الضربة عظم الساق فهوى على الأرض وانهال عليه مُكسّرًا عظام الفخذين والساعدين والكتفين. صار الحداد يضرب بعنف متشفيًا في الرجل الذي فقد وعيه.

و«الباي» يصيح بعد كل ضربة: «زيد للكلب!».

ويقفز مصفقًا بيديه كالولد الصغير.

وجاء سائس بحصان هائج يحمحم ويرمح بعنف شديد فصار السائس يضربه بخيزرانة على وجهه حتى يزيد في هيجانه. واقترب الحرس من «سلطان». أقعى واحد منهم على صدره وربط حول عنقه حبلاً مدّه إلى السائس. شدّ السائس الحبل إلى ذيل الحصان شدًا متينًا ثم لكزه بمهماز وتنحى عن طريقه.

دار الحصان في مكان واحد عاضًا الحبل بأسنانه، رافسًا الرجل بحوافره فأصاب منه مقتلاً. ولما أعياه الدوران عدا بكل قوته باتجاه الصحراء جارًا شِلْوَ «سلطان» وراءه، إلى أن انقطع ذيله فركض طليقًا وغاب وراء الشفق.

جرّ جنديان الشّلو وقد تحول إلى كتلة من لحم مهروس ودم وتراب وسجّوه على الأرض، في وسط السّاحة.

ودخل جند الباي القصر فاتحين، فبقروا أكياس القمح وأفرغوها وسط الرمال وهشموا خوابي الزيت وكسّروا أواني العسل والسمن. فاختلطت السوائل وجرت في سواقٍ خرجت من الدار وانحدرت باتجاه الواحة.

ووقف قائد المحلة فوق رأس «سلطان» يبيع نخله.

كان ينادي على البساتين بأسمائها، وكان رجال غرباء من الأعراب القاطنين خارج الواحات، على مشارف الصحراء يدفعون مقابل النخيل، أكياس الذهب وقطعان الإبل والخيول المسوّمة. وكانوا يدسون وسط عمائمهم حُجَجَ تمليك مدموغة بخاتم الباي.

# الباب الثاني

*وفيه حديث عن الجدة التي اقسمت الا يأكل الدود جثة ابنها فصنعت له خيمة خاصة واركبته على جواده الأبلق الذي طار بألف جناح ليطوف براكبه حول الكرة الأرضية إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها.*

*ملحوظة:*

*قرأت تصريحًا لرئيس تحرير صحيفة «نيويورك تايمز» يقول فيه: إن أحد رواد المكوك الفضائي «ديسكوفري» صادف فارسًا على حصان عربي أصيل يطوف في فضاء الله الواسع وأن الفارس حين اقترب منه اقرأه السلام بالعربية.*

*فرد عليه الرائد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.*

*ولكن بالإنكليزية.*

*فلم يتم التواصل بينهما وذهب كل واحد منهما في حال سبيله.*

مر أسبوع على وفاة «سلطان» والجدة تذهب كل صباح إلى المقبرة تغطّي القبر بقطعة قماش بيضاء ملطخة ببُقَع من الدم الذي سال منه ساعة العذاب وتجلس عند رأسه تترقب شروق الشمس.

حين يظهر قرن الشمس من وراء الجبل ترفع صوتها المكدود بمزيج من النواح والغناء والترتيل والنداء.

صياحٌ تختلط فيه أصوات إنسية وحيوانية.

صياحٌ قادم من بدايات الخليقة أيّام كانت الحناجر عاجزة عن الإتيان بالكلام المُبين.

تطلق الجدة ذلك النداء فيردّد الجبل صَدَاه عدّة مرات. وحين تهدأ تلك الأصوات القادمة من تخوم الزمن السحيق تهمس الجدة للقبر:

- أفق يا ولدي لقد طلع النهار.

ثم تركب عصاها، تمتطيها كمن يمتطي جوادًا أصيلاً وتعود إلى البيت تسبقها حمحمة الحصان.

في الليلة السابعة بعد الوفاة تطهرت الجدة بالماء البارد وفركت جسمها بأوراق السّدْرِ ثم لبست جبة الحرير المطرزة بخيوط الذهب ورمت فوق كتفيها بُرنس عرسها وكوّرت عمامة فوق رأسها وقالت:

- الليلة سأعود إلى الدار مصحوبة بولدي. جهزوا الدفوف والطبول وأشعلوا الشموع في كل مكان.

وطلبت من النساء أن يلبسن ثيابهن الجديدة وأن يتعطرن ثم ركبت حصانها الخشبي وساقت الحصان الأبلق حصان «سلطان» أمامها وخرجت. تركت باب القصر مفتوحًا وانطلقت تعدو وهي تهزج وتغني خفيفة كطيور السّنونو. وتبعها عبدان من العبيد فأطردتهما بإشارة من يدها.

توقف العبدان مدة عن السير وراءها ثم عادا يلاحقانها. ولم تنتبه الجدة لهما إلى أن وصلت إلى الجبانة.

سارت كالنائمة باتجاه القبر.

تعثرت بالحجارة المتناثرة على جنبات القبور، ولم تلتفت إلى الدم السائل من الجروح التي أوقعتها الحجارة بأصابعها، إلى أن وقفت عند رأس الميت.

انزلت فأسًا ومعولاً من على ظهر الحصان وبدأت تحفر. التراب

الذي تكدس على القبر. مازال طريًا فأطاعها. فصارت تحفر بهمة وترمي به على جانبي القبر إلى أن عرّت عن الصندوق.

رمت الجدة الفأس وراءها وبحثت عن الخشب إلى أن وصلت إلى الصندوق ففتحته ولامست قماش الكفن فعرّت عن الوجه ونفضت عنه التراب، وقبّلته ثم حاولت احتضان الجثة فلم تقدر.

وعادت تحاول إخراجه من القبر فلم تقدر. فرفعت عقيرتها بصياح مجروح. ساعتها اقترب منها العبدان. مدّا أيديهما وساعداها على إخراج الميت من القبر. وضعاه على الحافّة وبقيا يترقبان الأوامر.

جلست الجدة بجانبه ونفضت التراب الذي عاد يغطي الكفن ويسقط على الوجه والأطراف ثم دعت بالحصان وطلبت من العبدين أن يُركبا «سلطان» على صهوته.

احتار العبدان وبقيا واجمين، وعادت الجدة تكرر طلبها، فساق العبد القصير الحصان قريبًا من القبر وأعطى اللجام للجدة وطلب من صديقه أن يرفع الجثة من الصدر بينما كان هو يرفعها من الرجلين. وأجلس العبدان الجثة على ظهر الحصان فوق السرج الذي ازدان بخيوط الذهب والفضة ووضعا الرجلين داخل الركاب. ومدت الجدة اللجام إلى ابنها وساقت الحصان ومشت وراءه سبع خطوات ثم ضربته على كفله بيدها ضربات خفيفة وصاحت به أن اذهب في رعاية الحي الذي لا يموت، أيها الأبلق.

في صباح الغد سرى الخبر في القرية أن «سُلطانًا» قد صنع قيامته. وأن الرجال الذاهبين إلى الصلاة الأولى رأوه راكبًا على حصانه. وأن الحصان كان يطير بألف جناح.

وركبت الجدة حصانها الخشبي وعادت إلى المنزل. قطعت الطريق صامتة، وهي تمسك بيد لجام العصا وتمسح باليد الأخرى دموعًا تهطل من عينيها مدرارًا. وجدت الباب الكبير مفتوحًا على مصّراعيه كما

تركته في أوّل الليل. ورأت الشموع تلمع في أرجاء السقيفة. اقتربتْ منها واحدة واحدة وصارت تطفئ النور بنفخة صغيرة تخرج من بين شفتيها كالزفير. ثم ذهبت إلى وسط الحوش. وقفت هناك، عجوزًا، عمرها أكبر من عمر الدنيا.

أطل الأولاد والبنات والأحفاد والحفيدات من وراء الأبواب التي تسيّج الحوش. أحسّت دبيبهم فالتفتت إلى الجهات الأربع وقالت:

- الآن أريد أن أستريح! رجاء، لا توقظوني عند صلاة الصبح! وأخرجت من بين رجلها الحصان الخشبي واتّكأت عليه ونامت.

عند منتصف الليل هطلت الأمطار بشدة. سُمع لقطراتها على سطوح البيوت نقرٌ ثقيل، ثم انهمر الغيث ودام أكثر من ساعة. والجدة واقفة وسط الحوش لا تتزحزح.

ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها. فكلما همّ أحدُ الأولاد بالخروج من البيت يتخطف البرق نور عينيه فيعود إلى الوراء خائفًا كمن أصابه العَمَى.

ثم صفّر الريح صرْصرًا عاتيًا مثقلاً بالرمال والحصى ودام صفيره إلى الصباح.

عندما هدأت العاصفة خرج الجميع إلى فناء الدار. رأوا رجلي الجدة قد غاصتا حدّ الركبتين في التربة التي تحولت إلى حجر أحمر. ورأوا جسمها الذي غطته الرمال قد تحجر وصار أصلب من الحديد. حاول الأعمام اقتلاع الجدة من الأرض فلم يقدروا. حفروا تحتها بالفؤوس والمعاول ثم حركوها يمينًا وشمالاً فلم تتزحزح من مكانها قيد أُنملة. تحولت الجدة إلى تمثال رخامي مغروس في قلب الأرض.

وعادت الأمطار القوية إلى الهطول.

وعادت الرياح إلى العصف.

وامتد غضب السماء سبع ليالٍ وثمانية أيام. إلى أن خرج العم الأكبر

خلسة من الدار ووضع مظلة أخيه المصنوعة من سعف النخل على رأس تمثال الجدة فرآها تبتسم. وأشرقت شمس الضحى حمراء ذليلة تبدو وتختفي من وراء الغيوم.

قال العمّ الأكبر:

- غطّوا الجدّة بجلباب الصوف يا أولاد واتركوها تنام مطمئنة! لا تقتربوا منها بعد اليوم فقد تعبت كثيرًا من أجلنا.

ونسي الجميع سريعًا أنّ تمثالاً آدميًا مطليًا بالطمي والرمال يقف وسط الحوش شاهرًا في الوجوه ابتسامته الساخرة.

# الباب الثالث

*وفيه حكاية الرجال ذوي القرون وما جرى لهم من غرائب.*

*وأخبار عن الزنوج الذين حررهم «الباي» من العبودية بفرمان أميري. وكيف ردّ العبيد إلى «باي» تونس حرية لا يعرفون ماذا يصنعون بها.*

*وملح وغرائب وطرائف أخرى.*

## (1)

فجرًا، قام «عزيز» من سريره وكأنه لم ينم دقيقة واحدة. سمع المؤذن ينادي لصلاة الصبح فتوضأ وقصد المسجد. وصل والإمام لم ينته بعد من قراءة الفاتحة فالتحق بالصفوف الخلفية للمصلين وكبّر ثم أنصت للقراءة المرتلة:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

وخرج من المسجد وهو يحثّ الخطى. قصدَ بيته لعلهُ يَنْعَمُ ببعض الراحة قبل طلوع الشمس. استمع إلى وقع خطى وراءه فظل يمشي. وظلّت الخطوات تُلاحقه إلى أن وقف أمام بيته فبادره صوت بالسؤال:

- سيدي! هل هذا بيت «سلطان» سيد «عتيقة» السابق؟

- نعم! ولكن ماذا تريد من قصر «سلطان»؟

والتفت يستجلي الأمر.

رأى رجلاً أسود يقف أمامه. رجل يلبس بدلة أنيقة ويضع ربطة عنق. اقترب منه الرجل ومد يده مسلّمًا.

- صباح الخير سيدي! اسمي سعد بن مسعود الشوشان.

وضغط الرجل على يد «عزيز» بودّ وهو يتفرس في وجهه.

- هذا هو أنت! «عزيز» السلطاني كما عهدتك أيام الصبا.

وأمعن «عزيز» النظر في وجه الرجل وهو يردد:

- سعد! أنت سعد بن العم مسعود! يا الله! كم هي غريبة هذه الدنيا! واحتضنه بودّ بين يديه، مسلّمًا عليه سائلاً عن أحواله. فأعلمه الرجل بأنه وصل منذ أيام من فرنسا وأنه جاء إلى «عتيقة» يبحث عن عبق الذكرى وعن مفتاح قبور الأهل الذين تركهم وراءه في الصحراء أيام المتاهة.

واستقبل «عزيز» صديقه القديم في القصر السلطاني، وأكرم وفادته فذبح له تيسًا أسود. وفتح في وجهه أبواب البيوت المغلقة منذ هجرة أجداده. طافا الحجرات بيتًا بيتًا وهُما يُبسملان وينفضان الغبار عن الحكايات القديمة:

أتذكر يا «عزيز» يوم تسابقنا في هذه الساحة للفوز بهدايا عيد «فرعون» فغلبتني فدفعتك فوقعت على الأرض فجرحت في ركبتك جرحًا بليغًا فبكيت ولم تقدر على الوقوف فتفلت أمّي بين أصابعها ومسحت على جرحك فقمت واقفًا وكأنّ الضّرّ لم يمسَسْك منذ حين.

فعاد «عزيز» إلى جرحه يكشف عنه ويبتسم.

نعم يا «سعد» ها هو ذا الجرح. لقد تحوّل إلى ضفيرة بالية تؤلمني كلما تذكّرت تلك الأيام.

ودخلا إلى دار عرّاف العبيد فوجدا طبْلا يتوسّط الدار.

الطبل كبير، تشدّ جلده حبال غليظة شدًا محكمًا.

اقترب الرجلان من الطبل. رأى «سعد» عصًا مُلقاة قرب الركن

فأمسك بها وبدأ في قرع الطبل.

دق على الطبل برفق دقّات عديدة وكأنه يختبر الجلد الهرم فأجابه الجلد أن أضرب بعصاك الطبل ولا تخف. فدقّه بعنف وهو على الأرض ثم علق حبل الطبل في عنقه وخرج إلى ساحة المنزل. رقص رقصات مجنونة فتحلّق حوله الزنوج يصفّقون. جاؤوا من كل مكان. خرجوا من تحت الأرض ومن بين شقوق الجدران. حضروا الحفل ثم ذابوا مع أصوات الدّق على الطبل التي خفتت شيئًا فشيئًا إلى أن تلاشت في الأثير.

## (2)

ونادى عمي الأكبر العبيد الذين ورثهم عن جدي وقال لهم: «دقوا طبول الحزن هذا اليوم ففي الغد لن يكون لي سلطان عليكم!».

لم يفهم العبيد مغزى كلامه ولكنهم أخرجوا الطبول الكبيرة وأشعلوا نارًا لتسخين جلودها ثم حملوها على رؤوسهم وبدأوا في قرعها بعصيّ غليظة. ونَزّ العرق من الأجساد اللّمّاعة كحبات الزيتون فتفنن الرجال في استخراج ألحان حزينة من تحت الجلود المشدودة شدًا عنيفًا بحبال المسد.

ودار العبيد حول تمثال الجدة سبع دورات. رقصوا رقصًا محمومًا كأنهم مردة من جان ثم خرجوا إلى الساحة. داروا فيها حتّى التهبت الشمس في السماء فذهبوا يجوبون أزقّة القرية. خرجت النساء لاستقبالهم نادبات، نائحات، لاطمات وجوههن وصدورهن.

قال لهم شيخ العبيد: «هذا طبل «سلطان» سيدنا، نقرعه اليوم للذكرى!».

وواصل الطّواف حول أسوار القرية.

وقال لقارعي الطبول: «هذا باب النصر، سلام عليه، ادخلوا منه آمنين! وهذا باب هزيمتنا، لا حيّاه الله، سنخرج منه قريبًا!».

وتجمع الرجال والأطفال والنساء والشيوخ حول جوقة العبيد فرفع

عرّافهم رأسه وأشار إلى «لا غالب إلا الله» المنقولة من ديار الأندلس والمنقوشة بخط كوفي أنيق أعلى باب السّور. ولم يفهم الرجال معنى الإشارة لكنهم رفعوا طبولهم فوق رؤوسهم وقرعوها عنيفًا تحية لتلك النمنمة ثم هجعوا وناموا تحت السّور.

حين أفاقوا، أخرج كبيرهم من طيّات ثيابه سكينًا تلمع وبقر بطون الطبول. كان شرسًا وهو يبعج بالسكين أصداء الفجيعة والهوان. ثمّ ذهب إلى الجبانة. دفن السكين في قبر مُهْمَلٍ وعاد إلى الدار وقد نبت في رأسه قرنان كقرني الثور.

كان خائفًا ومهزوزًا وهو يجتاز العتبة، لكنّ خوفه زال حين رأى القرون نابتة فوق رؤوس كل رجال القرية، قرون اختلفت حَسَبَ الوجاهة والمكانة السامية. فمنهم من كان أقرن كالكبش الذي أنزله الربّ على سيدنا إبراهيم الخليل فداء لجدّنا إسماعيل، ومنهم من كان له قرنان صغيران كقرني الحمل، وبين هذا وذاك عامة الرجال الذين حملوا قرونًا كقرون الخرفان والجديان والتيوس. رآهم يتحسسون القرون وهم بين مصدّق ومكذب. ثم حاولوا قلعها. حركوها يمنة ويسرة. ضربوها بأيديهم. نطحوا بها الحيطان ولكن دون طائل. وحين أعيتهم الحيلة صاروا يتبارون في إخفاء القرون تحت العمامات الكبيرة. وسكن قلوبهم الهلع فجروا إلى الدور يحكمون إغلاق أبوابها ويرقبون طلوع النهار لعلهم يخرجون سالمين من هذا الكابوس.

## (3)

ظلّ العبيد في دورهم إلى أنْ جمّعهم عمي في السقيفة، تفقدهم بنظرة واحدة وعدّهم. لم يبق سوى عشرة رجال أشدّاء وعشر نساء فارعات الطول وعدد لا يحصى من الأولاد والبنات وبضعة شيوخ وثلاث عجائز.

قال: «أين البقية»؟

فردّ عليه شيخهم: بنى بروؤسهم قائدُ الوجق الدكّةَ التي حاكم فوقها سيد هذا القصر. وصمت

وظل العبيد واقفين يترقّبون الأوامر لكن عمّي لم يكلمهم. كان ساهمًا يخطط بعود على تراب السقيفة ثم فجأة طلب أن يصرف الأطفال الذّين ملّوا الوقوف والصمت. أشار إليهم الجدّ فخرجوا ضاجّين بالضحك. وعاد العمّ يخط على التراب أشكالاً هندسية وكلمات بلا معنى ثم طلب من العمّ «مسعود» أن يقترب منه. قال له: أنت يا شيخ حكيم هذه الأمّة - أمّة السودان - وصاحب الرأي والتدابير فهل لك في الاستماع إلى كلامي لعلّك تحسن تبليغه لقومك. وطلب منه أن يجلس. لكنّ الرجل رفض الجلوس بين يديه. وألحّ العمّ في طلبه فجلس العبد قريبًا من قدميه على أطراف الفُرش.

قال عمي: ناديتك يا شيخ العبيد لأعلمك بفرمان الباي الذي يطلب فيه من الأسياد تحرير عبيدهم ويمنع فيه - تحت طائلة الحبس - الرق وتمليك النفس البشرية لغير الله. وقال عمي كلامًا كثيرًا حول المساواة بين بني البشر وأنه لا فرق بين أبيض وأسود إلا بما كسبت النفس الأمّارة بالسّوء. وقال إنّ بلالاً الحبشي سيؤذن في الجنّة وسيتداعى لصوته الشجي كل المؤمنين من عرب وأعاجم: فرس وروم وفرنسيس وطليان وصقلب وبلغار وزنج ومن بني الأحمر والأصفر وغيرهم من أمم الأرض قاطبة. كلهم سيجيبون نداء بلال الأسود الذي سيقيم الصلاة وراء النبي الأمّي وسيرفع نداء «اللّه أكبر» في أرجاء الجنة.

ولم يفهم شيخ العبيد حديث العمّ فظلّ صامتًا بينما العمّ يحكي عن فرق الخيّالة التي تجوب طول الإيالة وعرضها لتتثبّت من تطبيق هذه القوانين العليّة والأوامر السّنيّة.

ولم يدر الرجل بماذا يجيب فالتفت إلى بنيه وأحفاده يستشيرهم في الرد على هذا الكلام. فنكس الجماعة رؤوسهم وقال قائلهم:

«هذه بليّة حلّت بنا وإنّا لصابرون!».

وقال العمّ: «الباي يهبكم الحرية يا عبيدي فاضربوا في الأرض آمنين».

قال الجد: «إنّا لن نغادر دارك إلا إلى القبر يا سيدنا فارددْ على باي تونس حريته!».

لكن عمّي الخائف من أن تُنْصَبُ له دكة جديدة في الساحة العامة رفض ردّ شيخ العبيد وأمهلهم ليلة يجمّعون فيها أدباشهم ويودعون أحبابهم ليذهبوا بعد ذلك إلى الحرية خفافًا كغزلان الصحراء.

وانفلتت عجوز من ركن قصيّ من أركان السقيفة، جرت عنيفة وارتمت في حجر عمّي وراحت تقبّل يديه وتبكي ثم أخرجت من صدرها ثديها وقالت: أحلفك بالحليب الذي رضعته من هذا الثدي ألا ترمي بنا إلى هذه الحريّة التي لا نعرف ماذا نفعل بها!

فردّ عمّي: هي يا أمّي أوامر الباي وإني لا أقدر على عصيانه، ولعن العبيد «الباي» وخرجوا من السقيفة، وقد تداعوا إلى اجتماع عام في دار العرّاف.

## (4)

وكبُرتْ المناحة. ارتفع العويل والبكاء في كل البيوت القرية. فكلما اقترب موعد مغادرة عبيدنا للقصر حطّ الحزن أكثر في كلّ مكان. الحرائر يتبادلن مع الزنجيات تمائم السّعد وعقود الخرز الملوّن والودع اللّماع. والشّيوخ يهبون للشابات عود القماري وقطعا من جلد التمساح وقشورًا من بيض النعام وعاجًا من أنياب الفيل وماء من بحيرات إفريقيا. وأطفال الزنوج يهربون من مكان تجميعهم ويلتجئون إلى السّطوح والمخابئ التي وفرناها لهم في أقبية القصر. كنّا ندسّ في جيوبهم كلّ ما يصادف طريقنا، التّمر المجفف وحبات اللّوز المقشّر

والزبيب وأقـلام القـصب ومـصـاحف القـرآن واللحم المقـدّد وحكايات العفـاريت والنكت الماجنة والذّكريات.. وكانوا يبكون ويضـحكون، يهمسون ويصـرخون يقـتربون ويبـتـعدون إلى أن وقف شـيخ العـبيـد في السّاحـة العامـة ونفخ في بوقه فتَنَادى السّودان من كل مكان. من دار جدي ومن دور الموسرين الذين ملكوا العبيد ذات يوم. تجمعوا في الساحة وخرجوا في مظاهرة احتجاج كبيرة. طافوا في الشّوارع كامل الصّباح ثم قصدوا دار «الوالي» الجديد وهم يقـرعون طبـولهم وينفـخـون في مـزاميـرهم ويحرقون البخور ويرقصون رقصات مجنونة. ظلّوا في هذا الصخب إلى أن خرج لهم «الوالي». وقف في شـرفـة قصره مُحـاطًا بجنود مـدججين بالبواريد التركيّة والانضباط. رأى الرجال ظلّ ابتسامة ساخرة عالقًا بين شفتيه حين حمد الله وصلى على رسوله ثم مجّد سيّدنا ومولانا «باي» تونس ودعـا له بالعزّ والرفعة وطول العمر والسّؤدد. ثم طلب من العبيد أن يتفرقوا. قال لهم: «إن لنا في رسول الله أسوة حسنة، اذهبوا فأنتم الطلقاء!» لكن العبيد لم يبرحوا المكان. وعادوا إلى اللغط والهياج وصاح شيخهم: قُلْ لسيّدك ألا حـاجة لنا بحريته! واطلب منه أن يسمح لنا بالعودة إلى أسيادنا».

وأُسقط في يدي الوالي. لم يدر بماذا يجيب هؤلاء الرجـال الذين يرفضون حرية وهبها لهم سيدهم. ارتبك في وقفته ثم استلّ من جنبيّته بارودة قصيرة وصـار يطلق في الهواء طلقات طائشة وهو يعوي كالذئب المجروح فخـرج جنوده من كل الأمكنة. فكأن الأرض انشقت ودفـعت بهم دفعًا إلى ظهرها. وانهـال خيّالة الوالي ومُشـاته على الرّافضين لنعـمة مـولانا «البـاي» فـفـروا هاربين في كل الاتجـاهات. تدافـعـوا وتصـايحـوا وسقط الشيوخ على الأرض فتناوشتهم الأقدام والهراوات وبذيء الكلام. وغابت شمس اليوم كاسفة وراء هامات النّخيل.

ووَجَدَ العبيد أنفسهم في العراء فباتوا ليلتهم الأولى تحت الأسوار

يشعلون النيران لعلها تصنع لهم دفئًا ويرددون نبوءات العرّاف:
«اليوم سنُولدُ من جديد وسنبدأ حياة أخرى».

## (5)

ومرت الأيام بطيئة على العبيد الذين حرّرهم «فرمان» الباي. فلا هم قادرون على العودة إلى القرية ولا بمستطاعهم بداية مشوار الحياة الجديدة التي وعدهم بها العراف.

حاولوا مرّات عديدة الاقتراب من الأبواب فمنعهم الحرّاس من تخطيها. ضربوهم بالهراوات ورشّوهم بالزيت الحامي. حرق الزيت جلودهم ففروا إلى البساتين القريبة من الأسوار. وبدأوا في قطع الطرق على الأسياد. نظم الشبان كمائن لخيّالة الوالي وأغاروا على الفلاحين العاملين في الواحة. وبلغ خبرُ ثورة العبيد فرسانَ الباي فتداعوا من كل مكان. حاصروا الواحة مدة أسبوع وألقوا القبض على مثيري الفتنة. صلبوا ثلاثة منهم على جذوع النخيل ثم جمّعوا البقية في قافلة ورحّلوهم إلى قلب الصحراء.

قال لهم قائد الفرسان: ستضعون سعادتكم في واحة جديدة تزرعون في سَرَابها النخل والتين والزيتون والرمان والورد وخدّ بوقرعون. وساق الجمالَ المُحمَّلة بمتاع العبيد. سارت القافلة نحو جنوب الجنوب مخفورة بفرسان الباي إلى أن بلغت نبع ماء شحيح، فقال القائد لأمة السودان: «هنا لن يستعبدكم أحد بعد الآن». وابتلعه وجنده السراب. وضاع الغبار الذي أثارته الخيول في الأفق الرحيب. ولفّ المكان صمت كصمت المقابر المهجورة. وانحدرت الشمس ببُطء من السماء ثم هوت في فم الصحراء الواسع كجُبّ بلا قرار.

اتجه العرّاف نحو النبع. وقف على كثيب الرمل المشرف على الماء وأخرج من قميصه الداخلي عود حطب أملس ووترًا. شدّ الوتر وأقعى

يجمع قبضة من الحشائش اليابسة. ثم حرّك الوتر جيئة وذهابًا على العود حتّى اشتعلت النار. وضع على الشرارة الأعشاب اليابسة وحمل النيران الملتهبة فوق كفّ يده اليُمنى ومشى فوق ماء النبع حتّى قطعه وقصد الجهة الأخرى من الكثيب. ثم أخرج قوسه وشدّ إليها سهمًا. وشدّ القوس بعنف ثم سدّد نحو قلب النبع فنفر الماء وعلا حتّى كاد يبلغ عنان السماء.

وارتفع هتاف العبيد وصياحهم وصخبهم وأخرجوا طبولهم وانهمكوا في قرعها بعنف المحرومين من السعادة حتّى أنهكهم التعب فارتموا على الرمل ينخرون ويشخرون.

وأخرج الأطفال من جيوبهم الحلوى واللوز المقشر والزبيب واللحم المقدّد. فشَوَوْا اللحم على كف العرّاف وأطعموا القبيلة حتّى شبعت ثم شربوا من ماء زمزم وناموا على حافة السراب.

**(6)**

نبع الماء قريبٌ من طريق قديمة تمرّ منها القوافل الذّاهبة من بلاد «نفزاوة»(*) والقوافل إلى «غدامس»(**) والقوافل تريح جمالها هناك عند النّبع فَنَبَتَ على جنباته نخل هو الآن قد استطال ومدّ أعناقه إلى السماء.

كانت نخلات النبع حين أفاق أطفال أمة السودان شبيهات بعجائز قد هزُلن ورقّقن حتّى صرن كالعيدان اليابسة. وعلتْ جُذوع النخلات رؤوس صغيرة جرباء، غبراء منتوفة الجريد. جرى الأطفال ناحية النّخل. التقطوا بعض التّمرات اليابسة التي أكل الطير والجراد أكثرها فنفضوها مما علق بها من رمل ثمّ التهموها وهم يهمهمون ويبكون ثم

---

(*) نفزاوة: واحة في جنوب البلاد التونسية.

(**) غدامس: واحة في شمال غرب البلاد الليبية.

كرعوا من ماء النبع وعادوا إلى قيروانهم. وجَدَ الأطفال الرجال ينصبون الخيام فمدّوا أيديهم الصغيرة للمساعدة. دقّوا الأوتاد وربطوا الحبال وكدّسوا جلود الماعز والخرفان والخرق القديمة فوق أسقف الأكواخ ثم تكوموا قريبًا من بقع الظل الشحيحة وأخرجوا من صدورهم الحكايات التي طالما سمعوها من الجدّات في ليالي الشتاء في القصر الكبير. وهاجت الرمال عنيفة وغطت عين الشمس. ونفخت الريح حارة كأنها خرجت لتوها من أفواه الجحيم فتذكر الأطفال مياه القرب الباردة ولعن الكبار فرمان باي تونس.

# الباب الرابع

*في ذكر الحوادث والماجَرَيات الّتي وقعت لـ «عزيز» بعد أن طار حصان أبيه بألف جناح. وتفصيل وقائع هروب أمه «ريحانة» إلى قصر الوالي الجديد. وأخبار عن موت أخيه وفرار زوجة أبيه من القصر.*

*وأعاجيب كثيرة...*

## (1)

بعد أن غادر جند «الباي» القرية، سكنت الفجيعة أزقّتها عامًا كاملاً.

سكتت الكلاب عن النّباح.

وما عادت طيور الحمام تهزج فوق قراميد البيوت.

ولم يدقّ طبل.

ولم يرتفع موّال.

إلى أن فاجأت أمّي الجميع بزواجها من الوالي الجديد بعد أن أُعدّت الصفقة في الخفاء. تنكرت أخت الوالي في ثياب بائعة جوّالة وجاءت إلى دارنا المجللة حياطنها بالقطران. وقفت المرأة أمام الأبواب التي ما عادت تُفتح حتّى ركبها الصَدأ ثم بدأت تُشهر بضائعها بصوت محايد. أطلّ خادم من أعلى السّطوح وطردها فذهبت دون أن تلْتَفت وراءها. وعادت في اليوم الثاني تقف تحت الأسوار وتنادي بصوت مسكين هزّ قلوب نساء القصر. وعاد الخادم يُغلظ لها في القول. وعرفت أمّي صوت المرأة ولم تجرؤ على الكلام. وغاب صوتُ البائعة الجوّالة أسبوعًا ثم عاد يرن داخل أرجاء القصر الصامت. تشاورت نساء القصر فيما بينهن

وطلبن من الخادم أن يُدخل المرأة خلسة من باب العبيد. قال: إن الأمر صعبٌ وإن الرجال حجّروا دخول القصر على الغرباء إلا بإذن خاص وإنه يجازف بقطع رقبته. فدسّت أمّي في يده حفنة من النقود فوافق وأدخل العجوز من باب سري يفتح على الإسطبلات.

عرضت البائعة على نساء القصر فساتين الحرير وعطور الهند وجواهر كثيرة وما لا عينٌ رأت وتركت لهنّ البضائع يجرّبنها ويلهون بها واختلت بأمّي ساعة من الزّمن.

سمعتُ من وراء الباب الموصد وشوشات المرأة التي ما إن اختلت بأمّي حتّى احتضنتها وصارت تقبّل وجنتيها ويديها وتبكي. وأمعنتُ النظر من ثقب الباب تطلعتُ إلى البائعة الجوّالة فبهرني جمالها. كانت وهي تنزع الخمار عن وجهها، وتستقيم في جلستها، وتضع الوسائد وراء ظهرها، وتحكي مع أمّي، كأنها تُكلم صديقة عمرها. وكانت أمّي تستجيب لنداءاتها وتضحك لضحكاتها وتمسك يدها الصغيرة وتضمها إلى صدرها في حنان ولطف.

ثم خرجت البائعة الجوالة من الدّار. لم تلتفت إلى البضائع التي جاءت بها في قفتّها وغادرت القصر وهي تتّكئ على عصاها وتحرك رجليها بمشقة عجوز في السّبعين.

وتحوّل وجه أمّي وهي تودع المرأة إلى الأحمر القاني فكأنها قد عادت إلى عمر الصّبا.

وعرفت أن أمرًا خطيرًا سيحدث في البيت.

(2)

مات أبي وترك لأمّي كنزًا توارثه عن أجداده.

ليلة هجوم جند الباي على القصر ناداها إلى مقصورته. تحدث معها طويلاً. قال لها إنه يعرف أنها لا تحبه وأنّه اغتصب قلبها لأنّها ابنة

عمّه، ومن العار أن تتزوج غريبًا وابن عمّها في الدّار.

بكت أمّي وهي تستقبل حنان أبي لأول مرّة وحاولت فتح قلبها لهذا الحنان الذي وصل متأخرًا جدًا لكنه ظل موصدًا وراء أقفاله الصدئة.

ولم يدمْ اللقاء طويلاً.

قادَ أبي أمّي من يدها وأوصلها إلى الإسطبلات ثم أخرج من جرابه فأسًا صغيرة وحفر حفرة في الركن الغربي من الإسطبل. وقال لها: هنا يرقدُ صندوق فيه قطع ذهبية ورثتُها عن جدتي. هي لك ولولدك فلا تفرطي فيها لأحد. اتركيها الآن في هذا المكان ولا تعودي إليه حتّى تفوت هذه الغمة. وعاد يغطي هذا الصندوق بالتراب وبروث البهائم. ووقعت الواقعة...

ودلّتني أمّي رغم عنف المعارضة التي لقيتها من أعمامي. كانوا يعرفون أنّها تملك مفتاح الكنز فلم يفكّروا في قتلها. قال كبيرهم: اتركوا أمرها لي فأنا أعرف كيف أستخرج من جوفها السر المكنون. وأخذ باللين ثم بالشدة فلم يحصل منها على شيء. وعرض عليها أن يُطلّق نساءه الأربع وأن يتزوجها ويرحل بها إلى تونس فقالت له إنّها عازفة عن الزواج. وهدّدها بالقتل فعرّت له عنقها الجميل فغضّ بصره ولعن الشيطان وضرب حولها حصارًا وكلف بها عيون القصر ترعاها ليلاً ونهارًا.

وطلبت أمّي رجال العلم، فجاءوا إلى دارنا.

وضعوا كتب التدريس فوق الموائد، قريبًا مني، وقرأوا على مسامعي علوم النحو والصرف والجبر والهندسة وعلم الميكانيكا وعلم الدين: القرآن والحديث والتوحيد والفقه والتجويد. والتاريخ والجغرافيا.

ثم صاروا يحكون لي عن هارون الرشيد، ويقرأون لي من أشعار أبي نواس، وبشّار بن برد، والمعرّي، وأهدوني رحلات السندباد البحري ومقامات الهمذاني، وبخلاء الجاحظ، ولزوم ما لا يلزم. وكانت أمّي تدسّ

في جيوبهم الذهب وتسخر من أعمامي وترقب ساعة الخلاص. إلى أن جاء اليوم الموعود.

في الصباح، سمعنا قصفًا كقصف الرّعود، ورأينا عمودًا من الدخان يصعد نحو السماء، يظهر ثم يغيب فجأة وراء الجبل.

جرت القرية برجالها ونسائها وشيوخها وأطفالها وكلابها وحميرها نحو مصدر الصوت. ولم يبق وراء الأسوار سوى نساء قصرنا، ورجل يتمرّغ على ظهر جواد.

اشتاقت النساء للفرجة على أعجوبة الكفار ولكنهنّ كنّ خائفات من بطش أعمامي فأوْصَيْنَني بأن أشاهد لهنّ هذا الوحش الذي يحمل في بطنه الرجال والدّواب ليطوي بهم المسافات البعيدة ولا يتعب. وعدتُهنّ خيرًا ثم قفزت خارج الأسوار بعد أن قدّمت رشوة لحارس باب الخدم: خبْزة كبيرة مرشوشة باللوز والفستق مَهَرَتْ زوجة أبي في صنعها. فألبسني الحارس كدْرون ابنه وطلب مني ألا أتأخر كثيرًا. كنتُ قد ابتعدتُ مسافة عن القصر حين وصلني نداء أمّي ملحاحًا. التفتّ فرأيتُهَا تلوّح لي من فوق الأسوار فلوّحت لها بيدي وجريت باتجاه الجبل تقودني حاسّة السّمع، إلى أن رأيت بناية عالية تجمّع حولها خلق كثير. وسمعتُ هرجًا ومرجًا وبكاء أطفال وتسبيح شيوخ تتدلّى منهم اللحي حتّى الصدور وضربٌ على البنادير وتهليل وتكبير... ثم ظهرتْ في الأفق البعيد نقطة سوداء بدأتْ تكْبُرُ وتكْبُرُ وتهجُمُ باتجاه الجمهور الذي تجمّع تحت البناية.

وملأ الضجيج والدّخان المكان ثم انبعث من الوحش صوتٌ أجشّ، وصفير مبحوح يصمّ الآذان.

واقترب الوحش الذي كان يدبّ على خطين من الحديد منّي حتّى كاد يلامسني ثم توقف فجأة أمامي ونفث دُخانًا أسود وهمدتْ حركته. رأيتُ شيطانًا يخرجُ من جوفه ويقتربُ منّي قفزًا ثم يحملُني بين يديه ويرفعني

عاليًا حتّى كدتُ ألامسُ السماء ثم يضعني على الأرض بعيدًا عن سكة الحديد.

التفتُّ يمينًا وشمالاً فلم أجد أحدًا في الساحة. تفرق الخلق المذعور في كل الاتجاهات. فـرّ الناس من أمـام وحش الحـديد وامـتـلأ المكان بالرهبة.

يوْمَهَا فرّتْ أمّي من القصـر ومن قسوة الأعمـام. ربطت حبلاً في سارية مدقوقة أعلى السور وتدلّت حتّى وصلت ظهر حصان الوالي الجديد. ونفر الحصان يعدوُ في أزقّة القرية الخالية.

كان الوالي يتشهّى أمّي وهي طفلة. رأى في منامه أنّ جدّي الأكبر قد وهبه نَبْتة فُلّ من بستان قصرنا فجمّع أهل بيته وطرق باب الجدّ طالبًا يد «ريحانة» لكن الجدّ شتم شجرة عائلته وأطلق وراءه كلاب القصر وعبيده.

## (3)

عشتُ في حجر زوجة أبي خمس سنوات بعد فرار أمي.

بسطتْ عليَّ المرأة الغريبة حمايتها وهددتْ أعمامي إن هم مسُّوني بسوء بأن تنشر في القرية ما لا يرغبون في سماعه. فخافوا وتركوني لها.

صرْتُ أنامُ معها ومع ابنها في فراش واحد. تُرقدنا على جانبي السرير وتضطجع في الوسط وتحكي لنا حكايات عجيبة.

هي لا تملّ الحكْيَ حتّى ننام فتذهبُ إلى حيث لا يعلم أحد ولا تعود إلا حين يفلق الضوء صدر السماء، فتنام حتّى منتصف النهار.

حكت لنا عن مدن غريبة جبالها من ذهب وسماؤها زمردة خضراء ورجالها ونساؤها أجمل من الملائكة. إذا اشتهوا الأكل تنصبُ أمامهم موائد الملوك. وإذا تمنوا الكساء تتغطّى أجسامهم بالحرير والدمقّس.

ونسألها إنْ كانت هذه المدن قريبة من قريتنا فتغمضُ عينيها وتقول:

- إنها بعيدة جدًا. أبعدُ ممّا تتصوّرون!

ونقول: هل هي وراء الجبل الأجردْ؟

فتردّ: أبعد! أبعد كثيرًا!

وتتنهّدُ. وتُواصل كمن يحدّثُ نفسه. تحكي عن هذه المدن التي عاشت فيها مع أبينا قبل أن تستقرّ في هذه البلاد المسكونة بالرمال والفجيعة. وعلى عكس ما تصوّر الجميع، لم تترك زوجة أبي القصر وظلّت تقف على السّطوح كل فجر ترقب عودة حصان أبي من سفره الأخير.

ثمّ مات ابنها فجأة وبدون مقدمات. فقد عادت الحياة إلى القرية ونسي الأهالي جند الباي ونسي أعمامي فجيعتهم في والدي وحضروا حفل زفاف ابن عمّي على إحدى قريباتي. وانهمكتُ مع الأطفال في اللعب تحت جبل من الرمل والحصى. تجمّع أطفال حينا وأطفال الأحياء القريبة على ضربات الطبل وتكدسوا تحت الجبل يحفرون نفقًا. ملأنا السّلال بالرمل الذهبي وغطينا بها تراب الحوش الذي بلّله المطر وحوّله إلى وحل يلتصق بالأرجل ويلطخ الثياب الجديدة ببُقع رمادية قبيحة. ثم لعبنا بعد صلاة العشاء لعبة الغمّيضى. اختفى أخي في النّفق وجاراه الأطفال الآخرون. وتكرّرت اللعبة حتّى أصابنا الضّجر فتركناها إلى لعبة أخرى. ثم تفرق الجميع وعاد الأطفال إلى منازلهم بعد أن لطّخ ابن عمّي القماش الأبيض المدسوس تحت كفل العروس بالدم. فلَعْلَعَ الرصاص وزغردت النسوة ابتهاجًا للشرف الرفيع.

وهدأت الحركة في الحيّ فعدتُ إلى دارنا. وجدتُ زوجة أبي نائمة فتمددتُ في مكاني حَذرًا حتّى لا أشوش أحلامها وهمدتُ بسرعة فقد أنهكني تعب اليوم الّذي هرب.

أفقتُ على لمسات على شعر رأسي. كانت زوجة أبي تفرّق بيني وبين ابنها بلمس شعر كلَيْنَا. شعرُ أخي سبط رقيق كالحرير وشعري خشن

ورثته عن أجدادي الذين هجّوا منذ ألف سنة من صعيد مصر وقطعوا البرور البعيدة ليستقروا في هذه الواحة الصحراوية. لمستْ المرأة الشعر الخشن. ثم بحركة لا إرادية لمستْ الجهة الأخرى. لم تجد أثرًا للشعر الحريري فطار النوم من عينيها وصارت تخبط في كل الاتجاهات. ثم قامت واقفة. أشعلت قنديل الزيت المعلق بحبل وسط الدار وبحثت بعينيها عن الصغير.

بحثتْ تحت السرير ووراء الخزائن ووسط الصناديق ولكنها لم تجده. ظنّت أنني تواطأت معه وساعدته كعادتي على الاختباء في مكان لا يخطر على بالها. خضّتني فأفقت مذعورًا. سألتني عن أخي فقلتُ لها وأنا أغالب النعاس إنّ آخر عهدي به كان وهو يلعب مع الأطفال في ساحة الحيّ. وعلا شخيري من جديد.

تركت المرأة الدّار كالمجنونة ورفعت صوتها بالعويل. فأفاق الخدم وقاموا مذعورين. طلبتْ منهم أن يبحثوا معها عن الصبي فكثر الصياح وارتفعت النداءات في كل مكان. ولا مُجيب. إلى أن وصل الأعمام. فعمّ الذُعر والارتباك الجميع وفاحت رائحة فجيعة جديدة في القصر.

وعاد الأعمام يستجوبون الأطفال فعرفوا منهم أنه كان يلعب قرب النفق الذي حفروه لجلب الرمل لحوش العرس. فجرى الأعمام باتجاه النفق وجرى وراءهم الخدم والجيران. وصلت الأمّ قبل الجميع وبدأت تحفر. حفرت بيديها ورجليها وبكامل بدنها. وقذفت الرمل بعيدًا. قذفت به أبعد من تخوم الصحراء الكبرى. وحفر الرّجال بالفؤوس والرفوش والمساحي إلى أن اصطكّ فأس بخلخال الصبيّ.

كانت زوجة أبي تريد أن تغالط الموت.

الموت الذي يعشق الأولاد ولا يبالي بالإناث.

لكنّ الموت عرف طريقه هذه المرة. عرف طريق ابنها ولم تنجح حيلة الأمّ.

دفعت الأمّ الخدم والأعمام بعيدًا ثم عرّت الرِّجل برفق، وقبلت الخلخال. ثم مسحت الرمل عن الفخذ والبطن والصدر والوجه ونفضت التراب عن الفم والأنف والشعر والعينين.

وقبلت وجنتيه والخال المرسوم على صفحة الخدّ ثم وضعت سبّابتها على شفتيها وأشارت إلى الحاضرين أن يصمتوا حتّى لا يوقظوا الصبي النائم. وعادت إلى البيت.

مالتْ عُنق الطفل مرّة إلى اليمين ومرّة إلى الشمال فأعادتها المرأة برفق إلى صدرها ومشت إلى أن وصلت إلى البيت فوضعت الطفل على يمينها واضطجعت في وسط السرير ونادتني. طلبت مني أن أطفئ ضوء القنديل المعلق وسط الغرفة وأن أملأ المكان الشاغر على يسارها. رأيتُ عمّي يشير لي بعينيه أن اذهب ونفّذ رغبة زوجة أبيك. فامتثلتُ للأمر. بعد مدة أحسستُ بها تلمس شعر رأسي وبدأتْ حكايتها عن المدن البعيدة.

في الصباح، أفاقتْ زوجة أبي باكرًا. أيقظها ضجيج الأعمام وهم يجهزون الطفل للدفن، فوضعتْ ثيابها ومجوهراتها في حقيبة وصعدتْ إلى سطح القصر. قالتْ لأعمامي إنها تترقب وصول الحصان المجنح الذي سينقلها إلى مدينتها البعيدة. ولمّا طلع قرص الشمس ولم يظهر الحصان طلبتْ منّي أن أحمل لها حقيبتها وأن أرافقها إلى محطة القطار.

ولم يبق لنا من ذكرى زوجة أبي سوى بُكاء الأجنّة الذين زرعهم أعمامي في رحمها ودفنتهم أحياء في بيوت القصر المهجورة.

# الباب الخامس

*وفيه قصّة استعادة «ريحانة» لعزيزها من أعمامه وتفاصيل عن الحمائم ذوات الوجوه الآدمية. وأوائل منسوبة إلى «عزيز السلطاني» في التّهتّك والفجور.*
*كما يروي لنا تفاصيل عن لقاء العزيز بزوجة أبيه في «الدّار الكبيرة» بمدينة «صفاقس» المعمورة.*

سَبْعَة صْبَايَا
في قَصْبَايَا
انْسَمْنْهُمْ
وانْطَمَنْهُمْ
واعْقَابْ الليلْ
نَاكِلْهُمْ

من خرافة: «الغول والبنات السبعة»
خرافة مشهورة في بلاد «الجريد»

## (1)

ظلّتْ كلاب قصرنا تنبح وراء «الوالي» إلى أن مزقت خيول باي المحال أطراف أبي فسكتت الكلاب عن النباح وفاح الفلّ فوق سرير الوالي الجديد.

عاد حبّه لريحانة يدق على أبواب قلبه بعنف الشباب وتهور المجانين. ولكنه لم يندفع وراء جنونه. وترقّب عامًا كاملاً حتى تتجلي غمامة

الحزن ويطحن تكرار الأيّام ضراوة الفجيعة. ثم بعث أخته للقصر لعلّها تستكشف بقايا عشقه في قلب ريحانة. وعادت الأخت بالبشارة فهزه الطّرب وأمر أن يُسيّج قصره بالفلّ.

واشتطّت أمّي في طلباتها، فاشترطت عليه ألاّ تُساكن نساءه وأن يبني لها دارًا جديدة. فوافق بسرعة. واستقدم البنائين المهرة من الجهات العبيدة. وأطلق أيديهم فشيدوا لأمّي قصرًا تفنّنوا في تعميره وفي تزويقه وزخرفته حتى استوى تحفة تسرّ الناظرين. وطلب منها أن يربطه ببقية دوره بسرداب فوافقت على طلبه راضية مرضيّة.

ثم أثّثَ الوالي الدّار الجديدة. جلب لها الأرائك والفرش والزرابي والتحف الثمينة في المدن البعيدة. وأعلن أمّي مليكة على قلبه. لكن أصوات نباح كلاب جدّي ظلّت تفزعه في مناماته وتفسدُ ساعات صفوه مع امرأته ففتش عن أعذار ليمتهن أعمامي ويُحقّرهم. وجاءته الفرصة حين طلبتْ منه أمّي أن يُحضرني إلى قصرها لأنّها ترغب في شمّ غرّتي.

وعرف أنّ الأعمام لن يلبّوا هذا الطلب فأدخل الإمام وسيطًا بينه وبينهم، لكنّهم صمّوا عنه آذانهم، وكابروا. ولم يتركوا الإمام يتكلم في هذا الموضوع. ولم تنفع وجاهته ولا ادّعاؤه أنّه من سلالة الرسول في تليين رفضهم. بل زادوا فتطاولوا على الإمام وحاولوا تعنيفه.

وجنّ جنون الوالي فبعث جنده يطوقون القصر ثم يحاولون اقتحامه. لكن الأبواب المنيعة وقفت في وجوههم. وأحرق جلودهم الزيت السّخن الذي سكبه عليهم الخدم من فوق الأسوار. فولّوا الأدبار هاربين.

واشتد الوالي على أعمامي. فقطع الماء عن بساتينهم شهرًا كاملاً إلى أن جفّت أحواض النعناع. وتساقطت أوراق أشجار الخوخ والمشمش. وذبلت الدّقلة في عراجينها.

وظل أعمامي متمترسين وراء الرفض والضّغينة، إلى أن أشار على

الوالي واحدٌ من جلسائه بالتظلم لدى إمام الجامع الأكبر والمطالبة بإلحاق «العزيز» بأمه. وراقت له الفكرة فأركب أحد أصفيائه على خيل البريد. وبعث به إلى «تونس» مصحوبًا بالهدايا والعطايا: برنس جريدي من حرير الشّام. وجبّة مطرّزة بخيوط الذّهب. وغرائر من أجود أنواع التّمور. وصندوق مرصوص بقراريط الذهب ومرصّع بالياقوت والزمرّد.

وازداد أعمامي شراسة في معاملتي كلما ازداد الوالي في إذلالهم وما عدتُ أبرح ظلّ الجدة نهارًا وسرير زوجة أبي ليلاً. كنت في النهار أستند على جذع التمثال الواقف في وسط الحوش وأحتمي بمظلة أبي المنتصبة فوق رأس الجدّة فَيَهَابُنِي الأعمام ولا يجرؤون على الاقتراب مني. فأملأ أوقات فراغي باللعب مع طيور الحمام. طيوري الجميلة لها وجوه آدمية بعيون زرقاء شبيهة بعيون أولاد أعمامي ورموش سوداء طويلة وأصوات هامسة كخرير الماء. تحطّ هذه الطّيور على كتفي وفوق رأسي وعلى يديّ وتملأ الجو هديلاً وأنسًا إلى أن يسرق فرحنا الظلام فأعود إلى سرير زوجة أبي ويعود الحمام إلى غرف القصر المهجورة. ويتحول هديله اليومي إلى عويل مكتوم، كأنّه طالع من بطن الأرض.

وعاد رسول الوالي الجديد من تونس مصحوبًا بوثيقة مدموغة بخاتم الباي. قرأ الوالي الوثيقة وسلّمها إلى القاضي. فقرأها متشفيًا. واستدعى عمّي الأكبر. ورماه بالوثيقة التي تلحقني بأمّي. وترفع عن كاهلي أيادي أعمامي.

رجا القاضي عمي تطبيق مطلب الباي. وهدّده بأنّ حامية الجند ستطبق القانون إذا امتنع وعاند.

وأذعن عمّي لكنّه اشترط أن ترجع ريحانة للعائلة الكنز الذي سرقته من القصر. وأن يعادي «العزيز» طيور الحمام ذات الوجوه الآدمية.

وجاء ردّ القاضي قاطعًا كحدّ السيف:

«سلّم العزيز لأمه يا رجل وإلا فعلى الباغي تدور الدوائر!».

وذهبت وحدي إلى القصر الجديد لأنّ «فاطمة» قاطعتني بأمر من الأعمام فسهوت عنها ونسيتُ بعد موت والدي أنها ركبت ورائي على جواد جامح ذات يوم.. فاطمة التي تفوح من شعرها الطويل روائح الحِنّة، بقيت في القصر القديم تحرس تمثال الجدة وتطعم الحمام.

(2)

فتحت أمّي أبواب قصر الوالي وسيعة في وجوه كل الزوار وأولمت للفقراء وليمة كبيرة تداعى لها الخلق من الجهات الأربعة وأوكلت أمّي إلى الجزارين نحر الجمال السمينة. فذبحوا مائة جمل. قالت لهم: هذه قطعان إبلي أمامكم، دعوا الفقراء يأكلون من طيباتها. واتركوا لضواري الصحراء نصيبًا.

واحتفلت القرية بعودتي إلى وسادة أمّي وحنانها احتفالاً مجنونًا. رقص وغناء وسكر وعربدة سبع ليال وسبعة أيام.

ولم يمانع زوج أمّي في أن أعربد وأتهتك في قصره بل صار يدسّ لي ندمانًا جددًا كلما فترت علاقتي بالأقدمين، فعلموني تدخين «التكروري» والرقص وأنا عريان السوّأة تحت ضوء القمر.

وصرت كلما ذكرت «فاطمة» أخرجوا لي من صندوق عجيب طفلة فاتنة. فآكل من تفاحها. وألحس عسلها. وأشرب رضابها. وأتوسّد زندها. وأنام.

ويقول والينا: أنت وريثي يا «عزيز»! سأترك القصر في حمايتك. ويغيب ضاربًا في الأرض أيامًا طويلة، بحثًا عن الغزلان والأرانب البرية.

يخرج الوالي إلى الصيد مصحوبًا بالندامى وبإحدى نسائه. يصطحب معه دائمًا الأصغر والأجمل والأقرب منهن إلى قلبه. ويترك البقية.

ويملأ القصر الضجر. فتتهافت النساء على المُجون. يبدأن بالغناء والموسيقى ولعب القمار وينتهين بين أحضان الوصيفات. يملأ ليلهن

السُّحاق واللّحس والمصّ والعضّ ونهش اللحم الطري والنهود النافرة والأرداف السمينة المكتنزة.

في الصباح، يذهبن إلى الحمّام. تخرج كوكبة من الفرسان تجوب الشوارع، تعتدي على كل من يجرؤ على المرور في الطرق ساعة خروج نساء القصر إلى الحمّام، ضربًا بالكرابيج ورفسًا بالأرجل وخبطًا على الحيطان. فيختفي الشباب وراء الأبواب الموصدة. ويكتفون بالتفرج على الموكب من وراء الشقوق والكوى الصغيرة. وتموت القرية إلى أن ينادي «البرّاح» بصوته الجهوري مصحوبًا بدقّات طبله معلنًا أنّ نساء الوالي وبناته عدن إلى الدّار سالمات غانمات. فتمتلئ الدنيا من جديد بالحركة.

تطير الحمائم وتحط على السّطوح. ويرتفع صياح الأطفال في الأزقّة. ويعلو غناء العشّاق مخترقًا المسافات البعيدة على جناح الأثير، مندفعًا من تخوم الواحات وأقاصي الوديان ليحطّ داخل مقصورات القصر. فتلتهب النيران في قلوب النّساء المنسيات. وتقطر الشهوة من عيونهنّ وتسيل بين الأفخاذ.

(3)

لم ألتفت كثيرًا لنساء القصر. في الأيام الأولى، تحرشت بي محظيات الوالي وبناته فلم أبال بهنّ. خفت من سطوة زوج أمّي وسيوفه وكلابه التي تنبح كامل الليل فهربت من طريق نسائه إلى أن أشرق قمر الليلة السابعة. ليلتها، وأنا أهم بالنعاس، أحسست بجسدين يلتحمان بي. وضعت الأولى يدها على فمي حتّى لا أصرخ وهمست:

- لا تخف! أنا بنتُ الوالي، وهذه أختي، جئنا نؤنس وحشتك في هذا اللّيل!

تحركت بعنف فوق السرير إلى أن تحررت من قبضتها ثم صحتُ زاجرًا:

- اخرجا حالاً!

فقالت الثانية بدلال وغنج:

- دَعي هذا الصّبي يا «رباب» هو أصغر من أن يعرف معنى أن تؤانسه بنتان في ليل الشتاء.

وخرجتا، خفيفتين كرفّة الفراش.

وضعت خُفّين في رجليّ وجريت وراءهما. فلم أجد لهما أثرًا.

قلت: لعلّه بداية حلم! وعدتُ إلى سريري.

لكنني شممتُ روائح عطر لذيذ في غرفتي. عطر لم أشمّ له مثيلاً قبل تلك الليلة. فزاد اضطرابي. وخفتُ أن أكون ضحية جنّيات تسكن القصر. وأرعبتني الفضيحة فنمتُ بعد أن أحكمتُ إغلاق الباب ورائي.

في صباح اليوم الثامن قدمتْ لي أمّي بنات الوالي اللاتي جئن يهنّئنها بقدومي. رأيت سبع بنات جميلات كحور العين، لذيذات كالتفاح الرومي، بشوشات، ودودات. ينظرن نحوي بخفر كاذب ويضحكن ويتغامزن. ولم أميز التّي طرقت بابي البارحة.

اقتربتُ لأسلم عليهنّ فشممت رائحة العطر الذي ملأ أحلام الليلة الفائتة. وأعطتني كل واحدة منهن خدّين طريّين لأقبّلهما، وأمسكن بأصابعي وضغطن عليها بلطف. وأشعل ارتباكي ابتسامات أمّي المتواطئة. فتركتهنّ وذهبت.

في الليل زارتني بنتان من بنات الوالي. لم أدر هل هما اللّتان جاءتا البارحة أم هما أخريان.

ولم أطردهما.

وتواصلت زيارات البنات إلى القصر مدة خمس سنوات بعت خلالها كثيرًا من املاكي لأهديهنّ عقود الزمرد وخواتم الياقوت. وشجعني الوالي على بيع ميراث العائلة طالبًا من أعوانه أن يشتروا منّي كل ما أبيع ثمّ يحوّل سندات البيع باسمه. وانهمكت أمّي في دفن الملائكة التي صنعتها

في أرحام بناته كما علّمتها زوجة أبي. تحفر حفرة في التراب تواري فيها اللحم الطري. وتسقيها بالماء الطهور. فتخرج منها بعد أيام حمائم ذات وجوه رائعة الجمال شبيهة بوجهي. تطير عاليًا في السماء ثم تحطّ على البيوت. تهزج وتهدل في النهار وتنوح ليلاً على الشُرفات العالية.

ويأكلني السّأم فأسافر إلى المدن القريبة والبعيدة. أختلق أتفه الأسباب لأسافر، فأنام مع مومس في ماخور قذر وأعود إلى البيت.

أو أشرب قارورة خمر رخيص في حانة وأعود إلى البيت.

أو أذهب إلى مزيّن يقصّ شعري وأعود.

أو أحتسي قهوة وأعود.

أو أكتري حمّامًا مكتظًا بالنساء لأمارس فيه ملذاتي. أملأ فم صاحب الحمّام بالذهب وأصعد على السطوح أرقب جنون المستحمات من خلال كُوًى بلّورية وأجلد عميرة. أرشّ المَنيّ على نساء الحمّام إلى أن يذوب بدني وتفرغ جيوبي فأعود إلى البيت.

ولم تَسَعِ الدّنيا حيرتي إلى أن قال الوالي لأمي ذات ليلة إنّه يتشهى الحمام.

وأخرج من بين طيات ثيابه خنجرًا يلمع كعيون القطط.

وفهمت أمّي الرسالة فأعطتني صندوقًا يكتظّ بقطع الذّهب وطلبت منّي أن أهرب إلى مكان يعزّ فيه طلابي.

ولوّحت لي بيدها.

وكان هدير القطار يملأ الأفق الرّحب.

## (4)

حالما وصلت مدينة «صفاقس» سألت عن «الدّار الكبيرة» فأرشدني كهل إلى دروبها. ملأت زوّادتي بالخيرات السّبعة وقصدتها. تقاذفتني طرق كثيرة. طرق ملتوية كالثعابين فمشيتُ وحثثتُ الخطى إلى أن

شممتُ الرائحة المميزة لحي البغايا. هيّجني الجوّ الغائم وضَربت قطرات مطر خفيف جبهتي فزادتني رهَقًا. وطارت بذاءات نساء الحي في الجوّ فقلتُ في نفسي:

«هنا مربط الفرس، يا رجل!» وانفتحت الأبواب في وجهي. فجُلْتُ في أزقّة المبغى نصف يوم دون أن أطرق باب واحدة من البنات اللاتي كنّ يقذفنني بسباب فظيع كلما مررتُ أمامهنّ. وكاد الليل يهجم على الشارع فاسْتَجرتُ بسيدة الحيّ، فأجارتني.

كانت المرأة ربعة القوام. في الخمسين من عمرها. سمينة دون امتلاء. يكاد الدم يقطر من وجنتيها. وكانت لا تكف عن الضحك وعن إطلاق النكات البذيئة. سلّمتُ عليها فردّت على سلامي بأحسن منه. وسألتها إن كانت تقبل أن تغلق أبواب ماخورها في وجوه كل الزبائن على أن أعطي كل واحدة من بناتها مرغوبها وأن أزورهنّ السبعة كل ليلة بآلة لا تكلّ ولا تملّ. فضحكت وصارت تخبط الأرض برجليها وتضرب برأسها على الحائط حتّى ظنَنْتُ أنها جُنّت، ثمّ قالت: «موافقة!» وأضافت بعد أن مسحتْ دموعها: «عَرفْتَ طريقي إذن!» ولم تزد.

ولم أفهم قصدها فبقيت واقفًا في فتحة الباب.

اقتربت منّي المرأة بعد أن غطّت وجهها بقناع من الجدّ فقبّلت جبيني. وأخذت زوّادتي فوضعتها فوق طاولة قصيرة القوائم في الركن الشّرقي من البيت. ثم نزعت عني برنسي وجبة الحرير وأشارت إلى الحمّام.

قالت تحدثني بودّ: «اترك الماء السّخن يطهّر عظامك يا صغيري!» فامتثلت لأمرها ودخلت الحمّام.

جاءتني بسطل كبير به ماء سخن وقطعة صابون معطّر وأغلقت الباب وراءها. تركتها تمضي ثم نزعت ملابسي الداخلية وصببتُ الماء على جسمي صبًّا لطيفًا. فسرى الخدر في كل كياني. وأحسستُ

بجسمي يخفّ حتى كدت أطير.

كانت للماء رائحة مخدّرة وطعم لذيذ.

وكنت كلما هممتُ بالكف عن الاغتسال عادت يدي إلى السّطل تغرف منه وتدلق على روحي. فقد تحولت في تلك اللحظات إلى كائن شفاف. وخفّ وزني. فبدأت أرتفع شيئًا فشيئًا في فضاء الغرفة. وأفزعني الرعب من الوقوع على الأرض التي كنت أبتعد عنها رويدًا رويدًا، فبادرت إلى سطل الماء وقطعة الصابون وقارورة العطر أثقل بها بدني المرتجف.

وكنت كلما أثقلت بدني ازدَدْت ارتفاعًا إلى أن لامستُ السقف فأغمي عليّ. وسقطت على الأرض محدثًا دويًا هائلاً. حين أفقت رأيت المرأة الجميلة جالسة وسط سرير كبير وأنا ممدّدٌ إلى يمينها. وسمعتها تحكي عن مدينة بعيدة يملأ الرمل أفواه أطفالها. وتسير قطاراتها على خُطى قوافل الجمال. ويطير أمواتها على خيول لها ألف جناح وجناح.

وتنحنحت فصمتتْ مدّة ثمّ قالت:

«ماذا جاء بك إلى هذه المدينة التي تأكل رجالها يا ولدي؟».

فقلت: «جئت أبحث عمّن يأكلني يا امرأة!».

وأخرجت من زوادتي جرة ملأى بقطع الذهب وقلت لها:

«هذا كنزي. ورثته عن أبي. به مائة قطعة من الذّهب الخالص. تزن كل واحدة منها مائة مثقال. أريد أن أبيع هذا الكنز وأشتري به نساء الحيّ مدّة سنة، فهل توافقين؟».

قالت: «أعرف هذه القطع!».

وأخرجت من صندوق صغير، مركون وراء السرير واحدة مثلها.

وقالت: «غدًا صباحًا سأطلب من حارس الحي أن يبدل لك قطعة منها عند الصائغ. وسأشتري لك بثمنها واحدة من بناتي وسأزف لك هذه البنت بالطبل والمزمار.

نم الآن يا صغيري سأجعلك تحلم بالجنة!

ووضعت راحة كفها فوق جبيني فنمت في التو والساعة نوم الرضيع في مهده إلى أن حطّ حمَام السيدة على قضبان سريري وانطلق هديله يسكر الروح الظمأى.

وصارت سيدة الحيّ تمعن في تمتيعي بضروب من اللذة لم أكن أحلم بها.

أحضرت إلى بيتها المغنيات الشهيرات والراقصات البارعات وضاربات العود الماهرات. وصارت تزفني كل ليلة عريسًا على واحدة من بناتها. وأنا أنام النهار بطوله متوسدًا فخذيها. ولا أفيق إلاّ عندما يسكن الظلام الحيّ. فأنهمك في اللهو والمجون والأكل وشرب الخمر.

وأسرني سحر السيدة. كانت تشير بإصبعها إلى طاولة عجيبة فيصطفّ فوقها في الحين صحون من الذهب والفضة وأواني أخرى من خزف الصين. ثم تشير مرة أخرى إلى الصحون فتفوح في البيت رائحة اللحم المشوي والسمك المقلي وأطعمة لم أر لها مثيلاً في حياتي. وتزدان الطّاولة بعناقيد العنب وبالتين والتفاح والموز والإجاص والكمثرى والبطيخ. وأنا أتشهّى الحاجة في خيالي فتحطّ على الطاولة في الحين واللحظة.

وجنّ جنوني فطلبت منها أن تبدل كل قطع الذهب التي مازالت في حوزتي بريالات إسطنبول وأن تشتري بتلك الفلوس ما يلزمنا لمدة سنة قمريّة.

قالت: «فهمت قصدك». ثم استأجرت الحمالين وذهبت إلى سوق المدينة. اشترت لنا الدقيق واللحم المقدد والسكر والقهوة والمكسرات وتفننت في اختيار أصناف الخمرة المعتقة. وأنا أراكم تلك المؤن في بيوت البنات السبع اللاتي حولتها إلى مخازن. ودعوتها إلى شراء المزيد من الحلويات والمسكرات فقالت وهي تضحك إنها تستطيع إفراغ مخازن دكاكين صفاقس في بيوتها بإشارة من إصبعها. ولكنها تأبى ذلك.

وضربت لي مثلاً.

قالت: «انظر!» وأشارت بسبّابة يدها اليمنى إلى ميزاب على سطح البيت. وأغمضت عينيها. وتمتمت بكلمات مبهمة. فبدأت قطرات من النبيذ تهطل من فم الميزاب. ثمّ سال خيط أحمر. وجرى على أرضية الزقاق. ذقت رشفة من السائل الهائل فوجدته خمرًا معتقة أحلى من الخمور المنسيّة من عهد ساسان. فقلت لها: «آمنت بك وصدّقت ولكنني أردت أن يطمئن قلبي!».

فقالت: «لك ما تريد يا صغيري!».

رجعت إلى الأسواق. فشرت لنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وما لا يخطر على بال. ثم عادت منهكة فنامت ثلاثة أيام بلياليها.

كنت خلال نومها أتجسّس على أحلامها. فأسرق منها حكايات تحدث بها طفلين يناممان معها على سرير في بلاد بعيدة.

عندما أفاقت من نومها دعت بأمهر البنّائين. ملأت جيوبهم الكبيرة بالنقود وطلبت منهم أن يسدّوا علينا باب الدار بالحجارة والملاط. ثمّ أكرمتهم بما بقي لديها من أوراق نقدية من خلال آخر ثقب في الحائط. وطلبت منهم أن يعلقوا أمام الباب لافتة تعلن للزوار أنّ «الدّار الكبيرة» مغلقة لمدة عام وأن على الرّاغبين في زيارتها ترقّب طلوع هلال السنة القمريّة الجديدة.

وكرّرت طلبها للبنّائين بفتح الباب بعد سنة. وغاب بقيّة حديثها وراء الملاط.

وجدت نفسي الفحل الوحيد في بيت مسكون بالجنون مع امرأة أكاد أعرفها. أحوم حول تخوم قلبها فتتحول إلى حوريّة تفتح لي فخذيها بمجون ولا تشبع من ضمي ولثمي ومصّ لساني، صارخة عند بلوغ النّشوة الكبرى باسم أبي. وأحسّ في أعماقي أنّني شممت رائحة روحها وأنا طفل فألجها برفق تارة وعنيفًا مرّات أخرى. أخضها خضًا فيطلع

من حلقها نطق لذيذ لحرف القاف الخفيفة. قاف لا يعرفها رجال الصحراء. ويزداد شكّي فأبطش ببناتها. سبع صبايا كلما باشرت إحداهنّ وجدتها بكرًا. كأن لم يطمثها قبلي إنس ولا جان. سبع صبايا عارفات بفنون الحب ولذائذ الغرام. سبع صبايا شهيات عند الغناء والرقص على نغمات آلة عجيبة شرتها السيّدة من دكان تاجر يهودي جلبها من بلاد الكفار. آلة تغني أحسن من أمهر المغنيات. تضع السيدة أسطوانة على صدرها وتمرر فوقها ذراعًا به سنّ كالمسمار الصّغير فتدور الأسطوانة ويخرج من فم الآلة صوت أحلى من تغريد البلابل يخدر الأعصاب ويمر على القلوب كالبلسم الشّافي، فأرى روحي تخرج من بدني. وترفرف بأجنحتها الصغيرة أمام ناظري. ثم تطير في ملكوت الربّ نشوى بالسحر الحلال.

# الباب السادس

*في ذكر عودة «العزيز» من «صفاقس» ودخوله «عتيقة» فاتحًا. ويحتوي على أسرار طرده من رحمة العائلة وتفاصيل عن العريضة التي تمّ بمقتضاها الطرد.*

*كما يحتوي على الحوادث التي قادته إلى الهجرة القسريّة من «عتيقة» إلى «قرط حدشت».*

## (1)

وأفقنا يومًا على ضربات البنّائين على باب الماخور. هدّم الرّجال الحائط وأطلّ أحدهم من كوّة صغيرة وهو ينادي:

- لقد وفّينا بالعهد يا «سيّدة» فافتحي للزائرين!

قالت:

- هل وصل هلال السنة الجديدة؟

فردّ: - عامك سعيد يا سيدتي! هات البشارة!

أعطته قرطين من الذّهب الخالص، فباشر إصلاحاته في الحيّ الخارج من سبات عام قمري.

وطلبتني من دار إحدى بناتها. فوسدتني فخذها وهمست:

- غدًا! عند انبلاج الفجر، حين يصير بمقدورك أن تميّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود سيصل حصان له ألف جناح. سيطير الحصان قريبًا من سطح بيتنا هذا فلا تخف! إنه حصان أبيك العائد من طوافه بين جنان الخلد.

سأركب الحصان وراء رجلي!

وسكتت مدّة ثم قالت: «غادر هذا الحيّ يا والدي عند شروق الشمس ولا تعد إليه أبدًا».

وقامت.

فقمت وراءها ألملم ذاكرتي المقتولة وأسأل عن طريق محطّة القطار.

## (2)

حين نزلت من العربة الخلفية للقطار في المحطّة الخالية، أطلق صفيره واندفع غربًا. أزّت عجلات الحديد على الحديد برهة ثم بدأت في طحن الرمل. كنت أعرف أن هذه المحطّة هي الأخيرة وأن لا سكّة حديد بعدها لكنني رأيت القطار يبتعد داخل المهمه القفر ويغيب عن ناظري شيئًا فشيئًا إلى أن ابتلعه الشفق الأحمر.

مشيت مدة وراءه إلى أن انتهت سكة الحديد وعوّضتها آثار أخفاف الجمال على الرّمال الطريّة فوقفت أستكشف الموقع.

هل أخطأت محطّتي وهبطّت في مكان آخر؟ ربّما!

لكنّ شجيرات الرّتم المقابلة للمحطّة مازالت في مكانها.

وبحثت عن القرية فلم أجد لها أثرًا. وقادتني خطاي إلى تلّة.

صعدت التلّة وأمعنت النظر. فرأيت في البعيد شكلاً يشبه البيت. قصدت البيت لكنني كلّما أمعنت في الاقتراب منه أمعن في الهرب منّي. ومشيت بقية ذلك اليوم وكامل الليلة التالية وراء البيت، إلى أنْ هدّني التعب ولم أصل إليه فنمت في مكاني.

أفقت في الصباح على هدير القطار. رأيته يبتلع آثار أخفاف الجمال المرسومة بإتقان على الطلّ النازف على الأرض. ثمّ يركب سكّة الحديد من جديد. ويهرب شرقًا. وأنا ألوّح بمنديلي في كل الاتجاهات لعل راكبًا يراني، لكنّ عربات القطار كانت خالية. كل العربات كانت خالية بدون استثناء، حتى عربة القيادة لم يكن بها سائق. وكنت الوحيد الشاهد على

مرور القطار. وانتبهت إلى أنني مازلت جالسًا في المكان الذي نزلت فيه عشية الأمس، قريبًا من شجيرات الرّتم.

بحثت مرة أخرى عن أثر يدلّني على طريق القرية فلم أجدْ غايتي. فقلت لأضربن في الأرض كالعميان، وعصّبت عينيّ بمنديل. وهجمت على مسارب الجبل. قطعتها خفيفًا أسرع من المبصرين ولم أقف إلى أن شممت رائحة النار.

هذه الرائحة أعرفها. وأمعنت في الشم فعرفت رائحة حطب النّخل الملتهب. ورفعت العصابة عن عيني فرأيت باب السّور. باب ضخم واقف أمامي بدفتيه الكبيرتين. دفتان عاليتان مصفحتان بالحديد والنحاس تزينهما رسوم وطلاسم.

وتلفت في كل الاتجاهات أبحث عن السّور فلم أجد له أثرًا فاندهشت وقلت متعجبًا: «باب ينغلق على لا شيء!».

وبقيت مدّة أمام الباب أفكر. هل أمرّ من خلاله أم أجانبه وأدخل القرية، فلا حائط يعيق تقدمي!

وعزمت على دخول القرية فاتحًا. فوضعت يدي على الخشب برفق وقلت: «باسمك اللّهم أدخل هذه القرية آمنًا». فانفتح الباب وكأنّ أيادي خفية تجذبه من الخلف.

ودخلت القرية من بابها الكبير. بسملت، وأوسعت الخطى. فرأيت المباني تخرج من الأرض ثم ترتفع رويدًا رويدًا إلى أن تستوي على اليابسة. وسمعت الكلاب تعوي، والديكة تصيح. وجرى أمامي الأطفال وخرجت النّساء إلى الغدير، يملأن الماء ويغسلن الثياب ويتطهرن من الجنابة. وساق الرّجال الحمير أمامهم بأتّجاه الواحة.

قلت: «هو سحر وربّ البيت»!

وقصدت دارنا.

حين قرعت باب السقيفة، تجاوب الصدى مع دقّاتي. فظللت أدقّ

وأدقّ إلى أن كلّ متّي.

وهممت بمغادرة المكان لكن الباب فتح وأطلّ منه رجل لم أعهده في خدمتنا.

قال: «تفضل! مجلس العائلة في انتظارك!».

قلت متعجبًا: «في انتظاري!».

ردّ لا مباليًا بحيرتي: «لقد انتهوا الآن إلى قرار بشأنك ووافق جميع أعمامك على القرار!».

وسار أمامي يضيء لي الطريق بقنديل زيت. فمشيت وراءه وأنا أتخبّط في الضوء إلى أن صدمني تمثال الجدّة الواقف في وسط الساحة. فذهبت أولاً للسلام عليها. قبّلت يدها الحجرية فأحسست بها حارة تحت شفتي. ثم رأيتها تحطّ خفيفة على شعر رأسي وتمسح عليه بحنو ورقّة.

وعمّ الهدوء المكان فسمعت خشخشة ورأيت جنود الأرضة منهمكين في أكل العصا الّتي تتكئ عليها الجدة.

مسحت شعري نافضًا عنه آثار رمال يد الجدّة. وذهبت رأسًا إلى قاعة الاجتماعات. وجدت الأعمام جالسين على كراسي واطئة وبين أيديهم أزمّة كبيرة وعلى وجوههم غيظ مقيت. سلمتُ عليهم فلمْ يردوا على سلامي. وفاحت من أبدانهم رائحة المقت والضغينة فظللت واقفًا أنظر في عيونهم إلى أن قام كبيرهم فحمد الله وأثنى على نبيّه وعلى التابعين وتابعي التابعين بإحسان إلى يوم الدّين. ورفع في وجهي عريضة وبدأ يقرأ:

«قرر مجلس العائلة بإجماع أفراده طرد «العزيز» من رحمة العائلة. والقرار بات لا عودة فيه. وذلك لما لحقها منه ومن أمه من أضرار ستظل ماثلة على الجبين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وسيعلق هذا البيان الختامي على جدران المسجد الجامع. وسيعلن عنه من على رؤوس

المآذن. والله على ما أقول شهيد».

وانفضّ المجلس.

خرج الأعمام وتركوني واقفًا في وسط الدّار.

فعادت أصوات الأجنّة الذين دفنتهم زوجة أبي في هذه الدّار تملأ رأسي صراخًا واحتجاجًا. وأجابتها أصوات في الغرف الأخرى. وامتلأت الغرف بالضجيج والنواح إلى أن كدت أفقد صوابي. فقصدت الباب خارجًا، لكن خادمين شدا وثاقي بحبل. وأحضرا حمارًا أركباني على ظهره ووجهي إلى الذيل. ثمّ علقا في يدي ورجلي نواقيس وجلاجل صغيرة وخرجا بي من باب الدّار.

اقتربت من السّقيفة فهوت الجدّة على وجهها.

الآن، أنهت الأرضة نخر عصا الجدّة فخرّت على وجهها بعد أعوام من الوقوف على رجل واحدة. ودقت طبول الحزن من جديد. وملأ العويل والنواح الكون.

ونخس الخادمان الحمار بعد أن طليا وجهي وثيابي بالقطران. وطافا بي في أزقة القرية ودروبها إلى أن أذنت الشمس بالمغيب فرميا بي خارج الأسوار الوهمية. وأغلقا ورائي الباب الكبير. بقيت ذاهلاً مدّة وأنا أستمع إلى دقّ طبول الحزن معلنًا موت الجدّة. وهجم الألم عليّ من الجهات الأربعة. وطوقني بدون رحمة. فقمت أدور حول القرية باحثًا عن منفذ في السّور الذي يطوقها. كنتُ كلما اقتربت ممّا توهمته سورًا صدّتني الحيطان وقذف بي بعيدًا إلى أن سمعت صفير القطار ودمدمته. ورأيت دخانه يأتي من بعيد، من وراء الأفق. ثمّ رأيته يقترب وئيدًا، يدوس على آثار أخفاف الجمال المرسومة على الرمل الطري ثم يركب سكّة الحديد ويعوي. فتئزّ عجلات الحديد على الحديد. كانت عربات القطار ملأى بشرًا وحكايات. وكنت حزينًا كيوم شتاء بارد، فلم ألتفت إلى صخب الرّكاب وثرثرتهم إلى أن سمعتهم يذكرون أحاديث

عجيبة عن «القرية الحديثة» التي بناها الكفار في المهمه القفر، قريبًا من جبال الثالجة.

فصحت: «قَرْطْ حَدَشْتْ» على مشارف الصحراء هذه المرّة! ياللعجب!».

التفت الركاب دفعة واحدة إلى ناحيتي فأهملت نظراتهم. وعدْت إلى عدّ عواميد الهاتف الهاربة عكس اتّجاه القطار.

# الفصل الثاني

## تغْريبة السّودان في «عهد الأمان»

# الباب السابع

*وفيه ذكر لعصيّ الأجداد الّتي ناوشت «عزرائيل». وتفاصيل عن حشائش الموت والحياة في المجدبة القريبة من «شط التّاكمرْت» وما وقع للقافلة الذاهبة إلى ميناء «كابس». وكيف حوّل ساحر «روميّ» الذهب إلى تراب. وأعاجيب أخرى.*

بات «سعد الشوشان» يحكي لـ «عزيز» عمّا قاسته ملّة السّودان سنوات التيه في الصّحراء.

قال:

عشنا في القفر سنين لا يعلم عدّها إلاّ الله. كنّا نخرج في الصباحات نصطاد ما يصادفنا من حيوانات الصّحراء وكنا في كثير من الأحيان نعود مرفوقين بالخيبة والهوان. فإذا صادف أن اصطدنا غزالاً أو ذئبًا أو ضبعًا أو ثعلبًا تعمّ الفرحة مضربنا. تشعل النّساء النيران. ونشوي الطّريدة. ثم نلتهمها في لمح البصر. ولكنّ التجربة علّمتنا أن ندخر من مواسم الرّخاء لمواسم القحط والجفاف. صرنا نقدّد لحوم الأرانب واليرابيع والأوْرال. وصادف مرّة أن اصطاد الأطفال ضبًّا. لعبوا به حتى تعبوا. وحين همّ الضبّ بالموت ذبحه أبي وشواه وفرّق لحمه بين الأطفال. استطاب الأطفال لحم الضّب فتفنّنوا في الاختباء له ونصب الكمائن في طريقه. وكان المسكين لا يقدر على الهرب منهم فيكتفي بخبط أيديهم بذيله الطويل ذي الحراشف المؤذية. ولكنّه كان ينتهي دائمًا فوق نيران الصّحراء.

كنّا في هذه الصّحراء لا نعاف شيئًا. أكلنا بقايا التّمر الّذي حملناه معنا في الغرائر. وعشنا مدّة على ما ادّخر الأطفال من هبات أولاد أسيادنا. وأكلنا عدّة أشهر من الجراد الذي حطّ قريبًا من عين الشمس التي كانت تغرب وراء ظهورنا. أكلنا الجراد طازجًا، مطبوخًا داخل قدورنا الكبيرة. وأكلناهُ يابسًا مجففًا بنيران الشمس الحارة. ومرّت الأيّام. وشحّ الزّاد حتى صار لا يكاد يفي بحاجاتنا. فكنّا نكتفي بتمرة في أوّل النهار وبتمرة عند مغيب الشمس، ثم صرنا نقسم التّمرة نصفين، نأكل النّصف في الصّباح والنّصف الآخر في الليل ونظل نمصّ النّواة طوال النّهار. وبدأ اليأس يجتاح القلوب بعد أن عدنا من الصيد طيلة أسبوع بلا طرائد بين أيدينا. وأيقنا بالهلاك. لكنّ العرّاف ظلّ يَعِدُنا برحمة السماء. كان يخلط مواعظه بكلام حكماء غابات إفريقيا وبآيات من الذكر الحكيم وكان لا يشبع أبدًا من ترديد: اصبروا وصابروا والعاقبة للصابرين.

وبدأ طائر الموت يحومُ فوق الرؤوس. على شكل بومة تصل مع مغيب الشمس. تحطّ فوق نخلة ميتة وتبدأ في النّعيب. فتخرج النساء هلعات يقرعن الأواني النّحاسية ويقرأن القرآن ولكنّنا كنّا ندفن في الصّباح الأطفال الرضّع. ثم داهم الموت الفتيان والشباب بعد أن صارت أيديهم وأرجلهم كصواري السفن. وانداحت بطونهم أمامهم. وزاد همّنا حين امتنعت القوافل عن ارتياد نبع الماء بعد أن وصلتهم أنباء عن قطعنا الطريق في وجوههم.

وصار الشّيوخ يمتنعون عن أكل نصيبهم من التّمر. ويكتفون بمصّ حصيّات كامل النّهار حتى استطالت أذقانهم، وغارت أعينهم. وصار الموت لا يهاب عصيهم التي كانوا ينُوشُونه بها كلّما اقترب منهم. فتركوا المخيّم وبدأوا في الضّرب في الصّحراء. كانوا يخرجون في الصّباح ولا يعودون إلا عند مغيب الشمس، ويظلون طائفين في المجدبة الكبرى

التي تركهم فيهـا جنـد الباي يبحثون بين الحشـائش عن شيء معلوم لا نعرف كنهه إلى أن اكتشفنا ذات صباح جثثهم مطروحة جنب بعضها فوق الكثيب المحاذي للنبع. مضغ الأجداد حشيشة الموت كامل ليلتهم وتركوا لنا وصيّة تقول: «إذا كان من الموت بدّ فامضغوا هذه الحشيشة. ولا تخافوا. فسوف يسري الخدر في أجسامكم من الوهلة الأولى ولن تحسّوا بخنجر الموت حين يغمد في قلوبكم. وسترون أرواحكم وقد تحوّلت إلى طيور صغيرة في حجم الفراشات وهي ترفرف فوق جباهكم. ثم تدخلون أبواب السّماء».

كانت مصيبتنا في فقد شيوخنا أكبر من احتمالنا في هذا القفر الموحش فقرّرنا أن نحتفظ بهم. حفر كلّ واحد منا قبرًا قريبًا من كوخه. فرشه ملحًا. ثم أنمنا الجدود وغطيناهم بالملح والتمائم وبكلام الرّب.

واستمرّ دبيب الأيام، بطيئًا، كئيبًا كحكاية مُملّة. ورغم ذلك لم نفكّر أبدًا في أمر العودة إلى قريتنا. كأنّ ماضينا مسح من ذاكرتنا مسحًا تامًا. إلى أن كان اليوم الذي ظهر فيه بعيدًا وراء الشفق خيال قافلة تخبّ في اتجاه مضاربنا. قافلة ضخمة بها عدد كبير من الجمال تسير وراء بعضها في خط مستقيم يصحبها عدد قليل من الرجال. تشاورنا فيما بيننا. وتدبّرنا الأمر. وقرّرنا أن لا نفوّت فرصة السطو على القافلة. وبما أن حالنا لا يسرّ، فقد اتفقنا على استعمال الحيلة للظفر برجالها والفتك بهم إن لزم الأمر، فابتعدنا عن عين الماء بضع مئات من الأمتار. واختبأنا وراء كثيب من الرمال. وبقينا نرقب وصول القافلة. فالجمال لا تحتمل العطش كثيرًا في هذه الهاجرة.

عند الظهيرة، اقترب رغاء الجمال وصخب الرّجال. وانجذب الجميع لسطوة البحيرة وسحرها. فمدّت النّوق أعناقها الطويلة ترتوي من نسغ الحياة. وارتمى الرجال بثيابهم يبتردون في الماء. وهزّنا الطّرب. فالقافلة بجمالها الكثر لا يحميها أكثر من عشرة رجال. تركناهم في لهوهم حتى

شبعوا من الماء. ووضعوا عن النّوق أوزارهم. وكوّموا الغرائر على الأرض. وأشعلوا النار لطهي الشّاي والطّعام. وعندما اطمأنّوا في مجلسهم. طلعنا عليهم من تحت الرّمال كالمردة من الشّياطين. وجرينا بأتّجاههم تسبقنا صيحات تفوح منها رائحة الجوع والموت. أطبقت عليهم المفاجأة فلم يتحركوا من أماكنهم. لكن فجأة رأينا رجلاً يقف في وجوهنا. ويخرج من جرابه مسدسًا. ويبدأ بإطلاق النار. كانت هيئة الرجل غريبة. ولباسه أغرب. ما كان يرتدي الجبّة كبقية الرجال وإنما يلبس تُبانًا يغطي رجليه حد الركبتين. ويرتدي قميصًا في لون الرمل. ويضع على رأسه مظلّة من القماش. لم يصب طلق الرّجل منّا مقتلاً لأنّه كان مرتبكًا. وكانت يداه ورجلاه ترتعش. ارتميت عليه وافتككت منه الآلة التي تطلق النار بعد أن قيّدت حركاته. وارتمى الرّجال على الرّجال. وساعدتنا المفاجأة على الانتصار فقيدنا أرجلهم وأيديهم بحبال وجدناها قريبة من الجمال. كانوا يستسلمون لنا بيسْر أربك اندفاعنا. يعطي الرّجل منهم الرّجل منا يديه ورجليه وقد أغمض عينيه حتى لا يتكشف عن عوراتنا. ويستسلم للحبال وهي تدور حول معصميه وقدميه استسلامه لقدر محتوم. الوحيد الذي أبدى بعض المقاومة كان رجل المسدس. نظر نحونا بعينين شبيهتين بعيني حنش مخنوق. ورطن بلغة شبيهة بنباح الكلاب. ولم نلتفت لنباحه إلى أن بدأ يعوي ويخبط برجليه في كلّ الاتجاهات. فالتفت إليه وملأت فمه رملاً. ووضعت حد السكين على رقبته فهدأ. وسال البول بين فخذيه قبل أن تبتلعه رمال الصّحراء الحارة.

والتفتنا إلى القدور فالتهمنا الطعام الذي لم ينضج بعد. وشربنا الشاي. ترشفناه سخنًا يحرق اللسان والشفتين ثمّ قمنا نتفقد الأسرى والفيء ونحمد الله على ما منّ به علينا من غنائم.

ملأ أكثر من ثلاثمائة جمل الساحة القريبة من عيون الماء وتكدست

غرائر كبيرة قريبًا من الجمال.

فمنّينا الأنفس بفوز كبير. وقلنا لابد أن هذه الغرائر ملأى تمرًا وقمحًا وخيرات أخرى. واتّجهنا نحو القبلة وبدأنا نصلي. ظللنا نركع ونسجد إلى أن آذنت الشّمس بالمغيب فكففنا عن الصلاة ثم اخترنا فحلاً من الجمال فنحرناه وقسّمناه قطعًا زرعناها فوق قبور الأجداد.

وعُدْنا إلى الرجال المقيدين. بادرني أحدهم بالكلام. طلب مني أن أفك قيده قائلاً إنه مترجم «الرومي» الذي يصاحب القافلة وألحّ في طلبه وهو ينظر نحوي بعينين فيهما كثير من الرجاء. رأيتُ الحبل قد غاص في لحم يديه. ورأيت دمًا تيبّس على الزندين. فأخذتني بالرجل شفقة. لكنّني التفتّ إلى صَحبي أطلب مشورتهم.

قال كبيرنا: «أطلق أسيرك يا رجل فماذا بمقدوره أن يفعل لجمعنا؟».

وبينما أنا أفكّ وثاق الأسير تقدم بقية الرجال نحو الغرائر يفكون أربطتها. وجاءت الصيحة من كلّ مكان وفي وقت واحد: «في الغرائر تراب يا رجال!».

واكتشفنا أن كل حِمل الجمال تراب. فألجمتنا المفاجأة ثم انفجرنا في ضحك مجنون. وبدأنا ننثر التراب في كل الاتجاهات باحثين عن القمح والتّمر، إلى أن صاح المترجم:

- «كُفّوا عن هذا الجنون! فلن تجدوا في الغرائر سوى التراب!».

وجُنّ جنوننا. فانهلنا عليه ضربًا ورفسًا ونحن نصرخ:

- «دُلّنا على الساحر الذي حوّل حمولة هذه الجِمال إلى تراب وإلاّ قتلناك يا ابن الكلبة»!.

واحتمل الرّجل الضّرب والرّفس بصبر المؤمنين الأوائل. ولم يفُه بكلمة واحدة. وتذكّرنا الرّجل الغريب الذي أطلق علينا النار حين فاجأتهم غارتنا، فقصدناه. وجدناه ملقى على ظهره ويداه مقيّدتان إلى الخلف. كان وجهه أبيض، شديد البياض، وحمرة جلده تذكّر بحبّ

الرمان المفضوح. جذبتني زرقة عينيه فقلتُ للرجال: «ها هو ذا السّاحر! دونكم وإيّاه!».

وعاد المترجم يصيح: «حاذروا يا لصوص السّوء فهذا الرّجل يحمل ترخيصًا من فرنسا بعدم التّعرّض له بالأذى! الويل لكم من جنود فرنسا إن مسستموه بسوء!».

ولم يلتفت أحد لكلامه. تلقف الرجال «الرّومي» من كل جانب وهم يتصايحون ويتهابشون: «أعد للغرائر قمحها يا ابن اللئيمة وإلا أكلنا لحمك الطري في هذه الصحراء»!

وزادت حيرة الرجل. فطلب من مترجمه أن يفسر له حديثنا. فتتابحا مدة. ثم رأينا الفرنسي ينفجر في ضحك صاخب. فكأنّ كلّ قردة العالم ترقص أمامه. وانبهرنا بضحكه. وبقينا ساهمين. إلى أن قال لنا المترجم وهو يبتسم بخبث: «إن الفرنسي يطلب منكم أن تحلوا وثاقه حتى يحوّل لكم تراب الغرائر ذهبًا».

وامتثلنا لأمره. قطع أحدنا الحبل. وقادهُ «الرّومي» إلى كدس من الرّمل فأجلسه برفق. وأعطاه جرعة ماء يبلّ بها ريقه. وعاد الفرنسي يطلب المترجم. بدأ حديثه معه بلطف ثم احتدّ شيئًا فشيئًا إلى أن صار كلامه صُراخًا. كان يُرغي ويُزبد ويشير بإصبعه إلى الغرائر التي أفرغناها. ثم يعود فيشير إلى الجهة التي قدموا منها. والمُترجم يهدّئ من ثورته. ويربت على كتفيه. إلى أن استكان الرجل. وقبل القعود على كثيب الرمل. فتركه واضعًا رأسه بين يديه وجاء إلى حلقتنا. تكلّم بوجه عابس وصوت مرتجف. قال: إنّنا اقترفنا إثمًا لا يُغتفر بتعرّضنا لقافلة تحميها «فرنسا» وحذّرنا من انتقام جند «الروم».

وحين سألناه عن الغرائر الملأى ترابًا! قال: «إنه الفُسفاط يا هوام!».

ولم نعرف معنى لكلامه. فهذه أوّل مرّة نسمع فيها هذه الكلمة.

وعُدنا نلح في السؤال: وهل هذا الفسفاط نوع من الذهب؟

فابتسم أول مرّة بعد عبوسه الطويل. وقال وهو يتنهّد: «هو أخ غير شقيق للذهب!» ولم يزد.

ظل المترجم صامتًا، ثابتًا في مكانه. لا يتزحزح عنه حتّى قام الفرنسي. فجرى نحوه. ومشيا سويًا صوب النبع. بقيا يتجولان قريبًا من الضفة حتى سقط القمر وسط الماء. فبللهما الرذاذ الخفيف الذي انتشر في المكان. فعادا أدراجهما بخطى وئيدة. يمشيان كما لو عُلقت في أرجلهما الأثقال.

قال المترجم لكبيرنا: أطلقوا سراح بقية الأسرى وتعالوا نتسامر سويًا. لقد عفا عنكم الفرنسي وهو يشترط حتى يكون عفوه نافذًا أن تقصّوا عليه حكايتكم.

فقال له: «هذه حكاية طويلة! دعنا منها الآن وهات حقيقة هذا التراب الذي قطعتم من أجله هذه المفازات!».

فصار المترجم يقسم بأغلظ الأيمان بأنه صدقنا القول. وبأن هذه الجمال ملك لقبائل «الهمامّة» «اكتراها «الرومي» الذي يراقب الموقف من بعيد، لتحمل هذا التراب الذي هو الآن بين أيدينا بعد أن استخرجه رجال من باطن الجبل. وبأن هذه الغرائر ستُوسَقُ من ميناء «قابس» إلى فرنسا لتحليل هذا التراب وإبداء الرأي في قيمته.

وعاد يهدد: «لا تغرنّكم قوتكم وضعفنا. فبعد قليل، سيصل جنود «الصبايحية» الذين سيشرفون على الوسق وساعتها لن ينفعكم الرجاء!

وفهم كبيرنا وعيد الرجل وتهديده فطلب منّا أن نكف الأذى عن هذا الخلق لعلّ بعض الخير يلحقنا جراء ذلك. ووافق الرّجال بعد أن عادوا مرة أخرى إلى تفقّد ما حوته الغرائر فوجدوه ترابًا يميل لونه إلى الأصفر الغامق. فزاد اعتقادهم في أنّ ما تحمله الجمال كان ذهبًا قبل أن يسحره «الرومي» ويحوّله إلى تراب. ورأى المترجم الشكّ في أعينهم فقال لهم وفي لهجته حسم للموقف: «دعونا نمرّ حتّى لا يفوتنا ميعاد

الباخرة فتحلّ عليكم لعنة "فرنسا"».

وكرر المترجم هذا الاسم أكثر من مرة مصحوبًا دائمًا بالتهديد فسأله كبيرنا: «ومن تكون «فرنسا» هذه؟» فردّ عليه حاسمًا: «هي التي شرتنا من الباي! لقد باع لها «الباي» البلاد والعباد فصارت كلمتها هي العليا على كامل الإيالة».

وعاد ينصحنا بالتسليم لمشيئة «الباي» وبمبايعة «فرنسا» سلطانة على كامل برّ تونس.

وأثمر هذا التهديد. فقد لاح التسليم في العيون.

ولكنّنا عدنا نسأل إن كانت هذه البيعة ستسمح لنا بالعودة إلى ديارنا. فوعدنا خيرًا بعد أن تشاور مع الفرنسي. وأكّد لنا أنّه سيصحبنا معه لنعيش بينهم في البوادي التي يملكها «الهمامة» وصدّقنا الرّجل. نزل حديثه على قلوبنا بردًا وسلامًا. فأطلقنا بقية الرجال. ونحرنا أوّل جمل صادفنا في الطريق. وأشلعنا النيران. وفاح الشواء. وغطت رائحته المكان. فأكلنا. وأكل معنا رجال القافلة. ثمّ أخرجنا الطبول. وانهمكنا في رقص محموم إلى أن طلعت نجمة الصبّح.

اختلى كبيرنا بالفرنسي ومترجمه ليحكي لهما قصتنا. وفي الصباح، ونحن نساعد رجال القافلة على تحميل الأثقال على الجمال، فتح كبيرنا في وجه الفرنسي قبور الأجداد. رأى الرجل الملح قد غطى الوجوه فرفعه بيديه وعرّى على العيون. قفز إلى الوراء مرتبكًا حين رآها تنظر بثبات إلى الشفق الذي تلألأ بالأنوار.

واتّجهت القافلة جنوبًا. ونحن رغم إيماننا بصدق المترجم نعجب لهذه الجمال المحمّلة ترابًا. ونردّ على تحيّات الرجل «الرومي» بأحسن منها. رأيناه يحرك يديه يمينًا وشمالاً وهو يردّد في نغمة سحرية: «بَايْ... بَايْ*...» فأطلقنا وراء ظهره أصواتنا الغليظة: «بَايْ» يا رومي «بَايْ»

(*) Bay - Bay

ظانين كل الظّنْ أنه «البَاي» الجديد الذي نصّبته فرنسا حاكمًا علينا.

بعد أسبوع عادت القافلة للتزوّد من ماء النبع. فجمّعنا بقية أدباشنا وحملناها على الجمال. وودّعنا الموتى. وسرنا وراء الحادي إلى أن بلغنا مضارب قبائل «الهمامّة» قريبًا من جبال «الثالجة». فاستأذنّا من شيخ قبلية «أولاد بويحي» في الانتصاب في تلك الوهاد. فأذن لنا. وخرجت القبيلة برجالها ونسائها وفتيانها للفرجة على هذا الفصيل من البشر ذوي الجلود السّوداء الذين وصلوا مع القافلة العجيبة التي ذهبت تحمل ترابًا وعادت محمّلة بشرًا سودًا. ويعجبون للأمر.

وظلّت حكايتنا حديث السّمر في نوادي البادية إلى أن عاد «فيليب توماس*» من فرنسا مزهوًا بانتصاره على هذه الطبيعة القاسية. أثبتت التحاليل المخبرية أن هذا «التّراب» صالح للاستعمال التجاري وأنه سيدرّ ذهبًا على مستغليه. وانفتحت أبواب هذه المجدبة أمام فرنسا فجاء رُسُلها من الجهات الأربع. فَاوضُوا رؤساء القبائل على شراء الجبال على أن يتركوا قطعان الإبل والمعيز ترعى النباتات العالقة بين الصّخور.

وأقسم المفاوضون للشّيوخ الخائفين من حِراب «القُيّاد» وبواريد «الجندرمة» بأنّ سهولهم لن تمسّ بسوء وبأنّ مباني الشّركة لن تكون أبدًا قريبة من مضاربهم.

---

(*) فيليب توماس: بيطري فرنسي (1843 - 1910) اكتشف مخزونات الفسفاط في الجنوب الغربي التونسي سنة 1885. وفي سنة 1990 سمّيت محطة المتلوي باسمه تكريمًا له.

# الباب الثامن

***ويتحدّث عن خروج سعد الشّوشان إلى المتاهة بحثًا عن بقايا أموات «أمّة السّودان» أيام التّيه العظيم وما جرى في المجْنبة. وحكايات عن الهواتف التي كلّمته. وعبَر لمن يعتبر.***

قضى «سعد الشّوشان» ثلاثة أيام في ضيافة «عزيز السلطاني» مبجّلاً مكرمًا. وفي صبيحة اليوم الرّابع طلب منه أن يصحبه إلى سوق الدّواب.

قال: «سأشتري سبْعة جمال وسأذهب للبحث عن جدودي في المجدبة القريبة من «شطّ الجريد». ولم يردّ «عزيز» عن قوله بشيء إلى أن وصلا إلى السّوق.

اختار «سعد» الجمال ودفع الثمن المطلوب لصاحبها قطعًا ذهبية. فابتسم الجمّال في وجهه وأوصل معه الجمال إلى السّاحة القريبة من قصر «سلطان».

في طريق العودة قال له عزيز: «لماذا لا تستعمل السيارة في البحث عن أجدادك؟».

فردّ عليه: «السيارة لا تعرف طريق الأجداد يا صاحبي!» وودعه أمام الباب الكبير قائلاً: «أعلم الشرطة عن غيبتي إذا لم أعد بعد سبعة أيام».

وساق الجمال أمامه بعد أن وضع على ظهورها توابيتَ وقِرَبَ مملوءة ماء وأكياس طعام وعلّق في أعناقها تمائم وجدها في بيوت العبيد.

وارتفع الحداء وراء الجمال. فهزّت أعناقها. وحركت ذيولها. وضربت بأخفافها الرمل. ويمّمت شطر الصحراء.

سار «سعد» ثلاثة أيام بلياليها وراء الجمال إلى أن وصل إلى نبع الماء. رأى النخلات العِجاف فحطّ عن الجمال أثقالها. ونصب خيمته في ظلّ الشجر المبارك. ونام على الأرض فوق كثيب من الرمل الناعم. نام كما لم ينم في حياته، نومًا هادئًا عميقًا إلى أن حطّت تباشير الفجر. فقام من نومه أخفّ من طائر السّنونو. رأى النجوم تتدلّى فوق رأسه وتبرق كفوانيس الكهرباء اللماعة. وأحسّ بهدوء الصحراء. فحطّت السكينة على قلبه. وامتلأت روحه بالطمأنينة والهناء.

قال: «حيّ على خير العمل». ومشى وراء رائحة الأجداد الخارجة مع نبض الأرض الطّرية بندى الصّبح.

طاف حول النّبع. وتتبّع خطى العرّاف. وشمّ قدحْ الزناد ورائحة النار. وأكل من تمر النّخل الصابر في قلب الصحراء. وشرب من ماء النبع. وأطال الطّواف بالمكان مستكشفًا يسائل الطلل عن الّذين مرّوا من هنالك إلى أن انتصف النّهار. فهطلت من السماء أشعة حارة كنار الجحيم. اتقى الحر بمظلة. وقرر أن يتحرك في ممر قصير بين النخلات ونبع الماء ولم يدر من أين يبدأ البحث. فالمنظر واحد. والقلب مضطرب. والرمال تمتد على مرأى البصر. كثبان صغيرة هنا. وأخرى عالية هناك خطّت عليها الرياح رسومًا بديعة. خطوط متناسقة تناسقًا أخّاذًا. رسم سوريالي تحطّ عليه العين فلا تكلّ ولا تملّ.

ولم يعرف «سعد» كيف يفكّ رموز هذه الصّحراء. فظلّ يراوح في سعيه بين الماء والنار إلى أن هدّه التعب. فذهب يستريح تحت خيمة نصبها على عجل قريبًا من مبرك الجمال. ومرّت القيلولة بطيئة، ثقيلة، لا طعْم فيها ولا رائحة كالهمّ على القلب. فقرر في لحظة يأس أن يجمّع أدباشه ويعود من حيث جاء. وصفّرت ريح «الشّهيلي» قريبًا من أذنيه

فحركت أبواب التوابيت الفارغة. وألهبت النار في قلبه. فمسح العرق السائل على جبينه. وغفا جالسًا على الرمل. ظلّ نائمًا إلى هدهده نسيم الليل البارد فأفاق. كانت النجوم تملأ السماء. نجوم كبيرة، برّاقة. نجوم قريبة منه يكاد يلمسها بيده. نجوم تشتعل بنور يخلب الألباب. التفت ناحية جماله. فرآها هادئة تجتر علفها وتسبل جفونها على العيون كلما حركت النسائم الغبار. واشتهى المشي في ساعات النهار الأولى. فقام واقفًا. ومشى في الصحراء التي امتدت أمامه بلا نهاية. مشى ساعات وساعات دون أن يدركه التعب إلى أن شقّ ضياء الفجر كبد السّماء. فعاد أدراجه متخومًا بالنّشوة والسّعادة. مشى وراء آثار أقدامه المطبوعة على الرمل إلى أن وصل إلى النبع. كان جائعًا. فأكل من زاده ما تيسّر. وعطشان، فشرب من القرب المعلقة على سارية الخيمة. وعاد يطوف قرب النبع. هو يذكر أن قبور الأجداد كانت غير بعيدة عن الغدير. ولكن الرمال المتحركة غيرت شكل المكان. فلم يعرف من أين يبدأ الحفر. راوح في اختيارات بين يمين الغدير وشمال النّخلة الباسقة. حفر هنا. حفر هناك. عزق الأرض بفأسه. نبش التراب بيديه. كلّ يوم، من أول النهار إلى طلوع القمر كان يبقر بطون الأرض. والأرض تعاند. ولا تبوح بسرّها. ويكابر. فيعود من جديد للحفر والنّبش وتقليب الرمال. وترفض الأرض أن تفتح له أبوابها. فيتمسّك بعناده إلى أن كاد يموت. نقص زاده. وأصابه إسهال شديد بعد أن شرب من ماء النبع. واحمرّت عيون الجمال. وهاجت. فقرّر العودة.

قال: غدًا أعود إلى «عتيقة». ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً. وافترش الرمل وأغمض عينيه فنام كما ينام الوليد.

قبل الشروق بقليل، أفاق مبهوتًا، شاحب الوجه. فقد زاره في المنام رجل يكاد يعرفه ولكنه يهرب من الذاكرة في كلّ حين. أمسك بيده وقاده في المتاهة إلى أن وصل إلى كثيب من الرمل الأصفر حيث نبتت شجرة

طلّح كبيرة. أوقفه تحت ظلّ الشجرة وقال: احفر هنا! ستجد أجداث جدودك يا رجل! وغاب كما جاء.

قال «سعد»: سأبحث عن كثيب الرّمل الأصفر حتى أجده، وعن شجرة الطّلح، حتي أقف تحت ظلّها. وساح في المتاهة النهار بطوله.

عاد مع غروب الشمس. فتقوّت. ونام.

وعاوده حلم الليلة السابقة. رجل شفيف كالهواء يأخذ بيده. ويقوده إلى كثيب الرمل الأصفر ويأمره بالحفر تحت الشجرة. و«سعد» يبحث عن الشجرة المستحيلة فلا يعثر لها على أثر. كان كل يوم يمعن في الابتعاد عن النّبع إلى أن حدثه الصوت شفيفًا كصاحبه:

- انظر وراءك وستجدُ الشجرة يا أعمى! ونظر وراءه. فرأى شجرة مسودّة كأنها طلعت لتوها من قلب الأرض.

قال: هذه شجرة نسيتها رحمة السماء! وأخرج معوله من جرابه وبدأ في الحفر.

ضرب الأرض بخفّة القلق الباحث عن اليقين. فلان التراب بين يديه. وتمادى شاقًا بطن الأرض بحديده إلى أن دوّى الصوت الشفيف مرّة أخرى داخل أذنيه أن كفى. خفّف الآن الوطء. وانبش التراب بيديك، فهذا الثّرى من لحم ودم!

وظهرت أجساد الأموات تحت طبقة من الملح.

كسّر «سعد» قطع الملح التي تيبست على الوجوه. فرأى شبح ابتسامة مرسومة على الشفاه المحنّطة. وأخرج الأجساد من حفرها وهي تطنّ طنين الفخّار المشوي. وأرقدها على الرمل. خاف أن تتفتت هذه الأجساد المتيبسة إلى قطع صغيرة ساعة إدخالها في التوابيت. فحركها بحذر شديد وهو يقول:

سادتي الأعزاء، اغفروا لي تطفلي. واتركوني أنعم بفرحة ترحيلكم إلى مقبرة يذكر فيها اسم الله!

والتفت صوب الرجال السبعة النائمين داخل التوابيت فرأى الابتسامات تكبر فوق الشّفاه المحنّطة. فشدّ التوابيت على ظهور الجمال. وأحكم الشدّ. ونهر الجمال فقامت واقفة. وارتفع رغاؤها وهديرها.

لايَنَ «سعد» جماله، ووضع في أفواهها السكر والحلوى. وساقها أمامه. فتحركت تخطو خطوًا بطيئًا. ثم حثّت السّير لمّا ارتفع وراءها صوت الحادي الشّجيّ.

مشت القافلة يومين دون أن تستريح. وكان «سعد» كلّما رأى ارتخاء الحبال يشدّها حتى لا تقع التوابيت على الأرض. فتتفتّت هذه الأجسام الهشّة. ويضيع الجهد فوق رمال الصحراء.

في اليوم الثالث، عَنَّ للفحل ترك السّرب المُهدّ منذ مئات السنين بخطى البشر والدواب والمُغامرة لاكتشاف درب جديد. درب شمّ رائحته من بعيد. رمله طريّ وهشّ. وترابه أحمر كالزّعفران. وسار الفحل يشقّ الدرب الجديد. فسارت وراءه بقية الجمال. وصاح «سعد» كالمجنون. ولوّح بيده وعصاه في وجوه الجمال محاولاً ثنيها عن المضيّ في هذه الطريق المجهولة. لكن الفحل رغى وأزبد وحرّك رأسه مهدّدًا مُتوعدًا. فولّى الرجل خائفًا مرتعدًا. وترك لهذه الحيوانات المجنونة أن تختار سبيلها. اندفعت الجمال نحو المجهول. وجرى «سعد» وراءها يلهث.

وابتلعت الصحراء قرص الشمس الكبير تاركة في الشفق حُمرة قانية. وهبط الظلام على الأرض. وملأ الكون رهبة وجلالاً.

في الأفق البعيد، أطلّ قرن الهلال خجولاً مُرتبكًا. وهدأت حركة الجمال فعادت إلى رتابتها. وفاحت رائحة الشّيح فملأت المكان بخدر لذيذ.

فجأة هزّ انفجار رهيب سكون الصحراء. لمعت نار تحت خُفّ الجمل الفحل. وانفجر اللغم فهزّ الجمل وما عليه عاليًا في الفضاء. وجفلت بقية الجمال. فجرتْ في كلّ الاتجاهات وهي تدوس على الألغام التي دسّها جنود الحلفاء لدبابات «هتلر» فانفجرت تحت الجمال.

وتحوّل ظلام الصّحراء إلى كون من الأنوار الساطعة.

دام اشتعال الأنوار ساعة. ثم عاد الظلام يحطّ على الكون. وفاحت رائحة الدم والبارود مدّة ثم ذهبت مع الريح.

وبقي «سعد» في مكانه يبحلق ملء عينيه في هذا التّاوب بين الظّلمة والنور غير مُدرك لما يجري. وظلّ واقفًا إلى أن طلعت تباشير الصباح فعاد إليه الرشد. رأى منظرًا غريبًا. أشلاء الجمال في كل مكان. تملأ السهل الرملي على مدّ البصر. ولكن لا أثر للتوابيت. بقي مدّة يبحث بعينيه في كلّ الاتّجاهات. ثمّ عاد أدراجه خائفًا يضع رجليه فوق آثار أخفاف الجمال إلى أن وصل إلى المسرب المُمهّد. فحث السير إلى أن قابلته أبواب «عتيقة».

كان أشعث، أغبر، مهدود القوى حين طرق باب القصر القديم، قصر «سلطان» وظلّ يطرق بكلتا يديه إلى أن فتحت الباب امرأة صغيرة. امرأة لا يزيد طولها عن شبر وبعض شبر. كانت تضع على رأسها مظلّة من سعف النّخل وتتكلم بسرعة تأكل الكلام أكلاً. تقفز كالسّعدان. سلّم عليها. فردّت عليه السلام. وسألها عن «عزيز السلطاني» فقالت إنّها لم تره منذ نصف قرن. وتسلّقته إلى أن وصلت كتفه. ووشوشته في أذنه كلامًا فزع له أشدّ الفزع. وفرت. فلحقها. دفع دفّة الباب وجرى وراءها حتى وصل ساحة القصر؟ قابله الخراب في كل مكان فوقف يسترجع أنفاسه. ظلّ واقفًا في مكانه مدة طويلة إلى أن تناهى إلى سمعه هديل حمام. رفع رأسه فرأى على شرفات القصر الخربة سربًا من الحمام. حمام ذو وجوه آدمية يهدل وينوح.

قال سعد الشوشان:

- الآن بلّغت الأمانة!

وغادر القصر، فأزّ الباب وراء ظهره وانغلق بضجيج وجلبة.

# الفصل الثالث

يَـالاَلاَ يا يُمَّـا المَشِـينَهْ(*)
بَعْـدَ لمْـشتْ وَلَتْ دَارتْ
بَطلنَا والنَفْحَـهْ طَارتْ

شعر شعبي من بلاد «الجريد»

## تعْريبة السّودان في «عهد الأمان»

(*) المَشينة: هي القطار في لهجة الجنوب الغربي التونسي.

# الباب التّاسع

***وفيه تفاصيل عن «برج بابل» الجديد. وذكر للوباء الذي ضرب أواني الفخّار في «تافلالت»، (*) فهجّ أهلها إلى بلاد الهمامّة في الجنوب التونسي وتفصيل حال أهل طرابلس الذين وصلوا إلى «المتلوي» في بداية هذا القرن.***

## (1)

تمتد «القرية الحديثة» أمامك وسيعة، مترامية الأطراف. تملأ منازلها السّهل الكبير. تحدّها من الجهات الأربع جبال جرداء رمادية قاتمة. ترتع بين شقوقها العقارب والأفاعي وبنات آوى. ووديانها سحيقة تنبت في مستنقعاتها أشجار الطّرفاء والطّلح والعرعار. ويجري ماؤها آسنًا يطنّ فوقه البعوض والنّاموس.

في هذا الخلاء زرع الفرنسيون مدينة تعجّ بالحياة. فما كان بالأمس القريب قفرًا تحوّل بلمسة ساحر إلى «برج بابل» يرطن فيه الخلق بلغات شرقية وغربية: فرنسية وإيطالية، ومالطية وإسبانية وروسية وبربرية وعربية بلهجاتها المختلفة تختلط فيها قلقلة أهل الشمال والساحل بنطق القاف الثقيلة لأهل الجنوب. والكل في غليان محموم.

أوّل من وصل إلى الموقع، الفرنسيون، بنوا الجسور والقناطر فوق الوديان. وفجروا الجبال التي اعترضت طريقهم. ومدوا سكة الحديد من ميناء «صفاقس» حتّى محطّة «المتلوي» بطول تجاوز مائتي كيلومتر. ثمّ

(*) منطقة في المغرب الأقصى.

حملوا القطارات أدباشهم وحطّوا الرّحال في ساحة المحطة.

استقبل مدير الشركة القادمين وأشار بيده إلى جهة الغرب قائلاً: «هذه مدينتكم، فادخلوها بسلام آمنين». ومشى أمامهم يتقدمهم بخطى واثقة.

## (2)

أجمل ما في «القرية الحديثة» حيّها الأوربي الذي خطّ أساساته معماريون فرنسيون على شاكلة مدن المناجم في شمال فرنسا. وقام بالبناء عملة إيطاليون وإسبان فجاء الحي على شكل رقعة شطرنج بشوارعه المتوازية المتقاطعة فيما بينها بنظام بديع.

يتوسّط هذا الحي المدينة ويتربع في أجمل أمكنتها. ويشرف من بعيد على بقيّة الأحياء التي استحدثتها الشركة للعملة الذين جلبتهم من الريف المغربي و«السّوس» و«تَافِلالت» ومن بلاد «القبائل» من الجزائر ومن واد «سوف» ومن داخل صحاري ليبيا ومدنها الساحلية. على جنبات شوارعه قامت المباني البهيجة: «فيلا» مدير الشركة الفخمة بقرميدها الأحمر العنّابي وبجنّتها المترامية الأطراف. وقصور المهندسين ودور العملة المهرة. وقريبًا من قصر المدير تزدَهي بناية الإدارة بفخامتها: عواميد منقوشة وأقواس بديعة وشرفات تطلّ على الجهات الأربع. يقابلها من الجهة الأخرى المقتصدية ومركز الجندرمة والمستشفى ثمّ مدرسة لتعليم أطفال الموظّفين فقاعة السّنيما. وينفتح الفضاء على ساحة واسعة في وسطها بستان به أشجار غريبة جلبها الفرنسيون من الغابات البعيدة يطلّ عليها منزل فخم لإقامة الضّيوف ثم ملعب لكرة القدم وآخر لكرة المضرب وثالث للكرة الحديدية. وفي طرف الحي قامت الأبْرشيّة تعلوها الصلبان الكبيرة وترنّ النّواقيس في برجها العالي. ويقصدها في أيام الآحاد والأعياد رجال ونساء أجمل من ملائكة

الرحـمـان. في الطرف الآخـر في الحي، بعـيـدًا عن المسـاكن ارتفـعت مداخن الورشات.

يقف على عتبات الشوارع رجال غلاظ، شداد يمنعون العرب من عبورها. رجال يتكلمون لغة كالعربية وما هي بالعربية. عرفت فيما بعد أنها لغة البَرْبر سكان جبال الأطلس الذين وفدوا من المغرب للعمل داخل أنفاق المنجم ثم اختار منهم الفرنسيون، ضخام الجثث للعمل حراسًا لشوارع «باريس الصغيرة» بعد أن سلّحوهم بعصيّ غليظة وبالكلام النّابي.

كان هؤلاء البربر أوّل من وصل إلى «القرية الحديثة» بعد أن قتلت منهم أوبئة نهاية القرن الماضي خلقًا كثيرًا حتى ظنّوا أنه الفناء. ولم يعد بمقدورهم دفن الموتى في المقابر فحوّلوا ساحات البيوت إلى مدافن جماعية، رصّوا فيها الآباء من الأبناء والخالات مع العمّات والجدود مع الجدّات. وتجرأت الطّيور الجوارح فأكلت من أطراف المرضى قبل أن يموتوا. ولم تجد من يزجرها. فصارت تخطف الرضّع من فوق أثداء الأمهات. وتطير بهم في الجوّ لتقدّمهم وجبة لصغارها. ويصل صراخ هؤلاء الأطفال مسامع الآباء من فوق سابع السماوات ولا من يجيب. ولمّا أنهى الوباء الفتك بالأحياء التفت إلى أواني الفخّار المعلّقة على الجدران. تتقلقل المسامير المدقوقة في قلب الجدران وتميل يمنة ويسرة. وتنحل الخيوط الماسكة بالصور وتتفتّت قطعًا صغيرة فتسقط المعلّقات على الأرض مُحدثة دويًا وقرقعة. وتتناثر شظايا الأواني على الأرض الموبوءة. كانت جثث الحمير والكلاب والفئران والمعيز تملأ الشوارع حين نُفخ في الصّور فقامت قيامتهم. جاء متعهدون إلى المداشر والقرى ينتدبون عمّالاً لشركة فسفاط قفصة فَتَفَاءَلُوا بخيرات تونس «الخضراء» على مرّ العصور وقرروا الرحيل.

التقط الفرنسيون الرجال من كل محطة يصلها القطار. عائلات

بأكملها أو بقايا عائلات غادرت البلاد إلى حيث لا يعلم إلا الله ملؤوا العربات المُعدّة للبشر ثم انداحوا يملؤون بقية العربات: عربات البضائع وعربات نقل الدواب. وقطعوا الفيافي يقتلهم الطّوى. ووهبهم حرّاس القطار الخبز، واحدة لكلّ كهل ونصف خبزة لكل صغير طيلة اليوم وأغلقوا وراءهم أبواب الحديد.

كان القطار يقف في المحطات النائية فيتفقّد الحراس العربات يراقبون الركاب ويتخلّصون من الموتى ثم تعود عجلات القطار إلى الانتحاب فوق السكة إلى أن وصلوا إلى المحطة الأخيرة فنزل هؤلاء البشر ذوو الملامح الصفراء الذّابلة في الساحة الكبيرة. باتوا ليلتهم الأولى في العراء ثم طلب منهم المُترجم أن يختاروا مكان إقامتهم فيمّموا شطر الجبل.

قالوا: «هنا سنَبْنِي حيّنا» فلم يعترض أحد.

## (3)

وقفتُ قرب محطة القطار مع المترجم وجماعة من المسئولين عن الشركة نراقب رجال البدو القاطنين قريبًا من المحطة، وقد جاءوا في صحبة النساء اللاتي كنّ يملأن القرب والقلال من الماء الذي وفّرته الشركة في خزّانات معدنية كبيرة لفائدة أعوانها.

وساد الترقب الموقف، فعدد العملة الذين وصلوا من الغرب مازال غير كاف لبداية الأشغال في المنجم. والأهالي يرفضون الدخول إلى الأنفاق. ويفضلون رعي الأغنام وفلاحة الأرض على نبش التراب بين الصخور في أعماق الأرض.

عاد المتعهدون الذين بعثت بهم فرنسا لاستقدام عملة من ليبيا منذ شهر بعد أن وعدوا بحضور الرجال وراءهم. ولكن الأيام مرّت ولم يصل أحد. وبدأ المَلَلُ يسري بين المترقبين حين ثار غبار كبير سدّ ما بين

السماء والأرض. وبدأ يقترب قادمًا من جهة الشّرق. رأيت الابتهاج يغمر وجوه الفرنسيين. وكثرت رطانتهم مع المترجم. وجرى أطفال إلى سطوح المباني القريبة فاعتلوها واضعين أيديهم الصغيرة فوق حواجبهم، مدققين النظر نحو الأفق. وانجلى الغبار عن جيش جرّار من الخلق: رجال ونساء وأطفال ودواب، بغال وحمير وخيول وخيام على عربات مدفوعة باليد أو مجرورة بالدّواب. وامتلأ المكان بالصّياح والهرج وببكاء الأطفال وعربدة الرجال وبنظرات النسوة المنكسرة. وانتشر هذا الخلق في الساحة الكبيرة المحاذية لمحطة القطار. فأشار مدير الشركة إلى المترجم طالبًا منه الحديث مع سيد القوم. بعد دقائق تقدم نحو المدير رجل وقور في السبعين من عمره يرتدي برنسًا من الصوف مشدودًا إلى صدره بحلَق فضّي. ويضع على رأسه شاشيّة. ويلفّ الشاشيّة بعمامة صفراء من الحرير. قدّم نفسه على أنه «مفتاح الهوني» وأنه سيد هذا الفصيل من الطرابلسية. وأنه يريد الاستيطان في هذه الأرض. ولا يبغي سوى العمل وراحة البال.

وبدأت أفواج الطرابلسية تصل إلى المحطة فوجًا وراء فوج. فيشير إليهم الشيخ مفتاح بالجهة التي يقفون فيها إلى أن اكتمل نصابهم. فهنّأهم الفرنسي بالسلامة. وأوصى المترجم بالإحسان إليهم. وغادر المكان.

قضى الطرابلسية ليلتهم الأولى بساحة المحطة بينما راح الشيخ مفتاح ورجال من خُلصائه يبحثون عن المكان الذي سيستقرون فيه. بحثوا طويلاً إلى أن وقع اختيارهم على فسحة من الأرض منبسطة وقريبة من سفح الجبل. فقال الشيخ: هنا سيكون المستقر. وفي الصباح الباكر صلّى بأهله صلاة الصبح. وجمّعوا أدباشهم. ويمّموا شطر الجبل.

قال الشيخ «مفتاح الهوني» بعد أن عاد يطوف بالمكان عدة مرات: أعينوني على اختيار مكان قبر الحياة يا أبناء العمّ!

فردّ الجماعة: أنت سيدنا. وقد تركنا لك أمرنا منذ خروجنا الأوّل من الوطن. فاختر لنا ما يعجبك.

قال الشيخ: ولكنني أريد أن تشاركوني في الأمر. فأنا لا أودّ أن تقولوا بعد سنين إن شيخنا غرّر بنا!

فأشار أحدهم إلى رأس من الأرض المبسوطة تحيط به الوديان الجافة من ثلاث جهات. ويحاذيه الجبل من الجهة الرابعة. ويربطه ببقية الأرض مسرب صغير. قال:

- ما رأي سيدنا في هذا الموقع؟

التفت الشيخ «مفتاح الهوني» إلى حيث يشير الرجل وابتسم:

- نعم الاختيار يا أخي! هنا فقط يمكنني أن أطمئن على بنات عمومتكم. سيَسْترنا هذا المكان حتى نعود إلى الديار.

وانهمك الجميع في العمل. حفر البعض مغاور داخل جنبات الوادي وبنى آخرون أكواخًا بالحجارة والطين. ووضعوا فوقها أسْقُفًا من أغصان الطّرفاء والعرعار والطّلح والأعشاب الصحراوية اليابسة. ونصب المترفون منهم خيامًا غطوها بجلود الأغنام والجمال.

وبدأت الحياة تدبّ في المخيّم الجديد. قاقت دجاجات. وارتفع الدخان من تحت قدور الكسْكسي والعصيدة الطرابلسيّة.

# الباب العاشر

***وفيه تفاصيل عن «علي بابا» وغرائب عن الأرواح الهائمة في أنفاق الجبل وأعاجيب عن رجال برؤوس بغال وبغال برؤوس آدمية وهلمّ جرّا.***

## (1)

بعد وصولي بأربعة أيام إلى «المتلوي» انتدبتني شركة الفسفاط عامل أنفاق. أيامها كانت الشركة تمرّ بأزمة خانقة إذْ قلّ الإقبال على العمل داخل الأنفاق بعد حدوث انهيارات كبيرة في دواميس هضبة جبل «الوصيّف». ورغم أنّ الشركة أذاعت أنباء تقلّل من الخسائر البشرية وتصل بها إلى حدودها الدنيا فإن العمّال الذين بقوا خارج الأنفاق يؤكدون أنّ عدد المفقودين فاق الخمسمائة. وعمّ الهلع والذعر المكان فغادر كثير من العمال المنطقة وعادوا من حيث أتوا. وانتحر المهندس الذي تسبب في الحادث. أكلته عجلات القطار الرابط بين «المتلوي» و«صفاقس» وظلت بقايا لحمه معلّقة على سكة الحديد لعدّة أيام. وهدّد الإفلاس الشركة الكبيرة وهي في بداياتها إذْ تعطل الإنتاج لمدة طويلة حتى كاد مديرو الشركة في «باريس» يصفون حساباتها ويعلنون التوبة عن هذه المغامرة.

وفاحت كراهية الفرنسيين في المكان فقد كان المهندسون يرفضون نصب أعمدة الخشب في الأماكن التي يخلونها من الفسفاط ويدّعون أنّ جدران الأنفاق شديدة الصلابة وتستطيع تحمّل ضغط ملايين الأطنان من الحجارة دون أن تتصدع وتنهار. ولكن تقديراتهم ذهبت سُدًى إذ انفجر الجبل في لحظة واحدة ودكّ الأنفاق دكّا فسدّت الصخور المتساقطة على

طول عـدة كـيلومـتـرات، الأبواب، وتعـذر تقـديم المسـاعـدة للعـمـال الذين أسرهم سلطان الجبل. وبين غمضة عين وانفتاحها تحوّل المنجم الذي كان يعجّ بالحيـاة ليـلاً نهـارًا إلى جبّانـة كبيـرة تطيـر في أنفـاقـه مئات الأرواح الهائمة وهي تدق على جدران الجبل باحثة لها عن منفذ للخلاص.

حين اسـتظهـرت لدى الإدارة ببطاقـة الانتـداب مكّنونـي من أدوات العمل: فانوس وفأس ومجرفة وجعلوني أوقّع على «وصل تسليم» يلزمني بدفع ثمن هذه المقتنيات بالتقسيط بعد حصولي على أجرتي، على أن أتركها في موقع العمل إذا عنّ لي الرجوع عن التزاماتي نحو الشركة.

صباح الغد وقفت مذهولاً أمام باب النفق الذي سأجتازه للوصول إلى أعماق الجبل. وتذكرت ما مرّ بي من وقائع فقلت في نفسي ستكون نهاية مغـامـرتك في الحـيـاة في هـذا الجُبّ الذي قـال فـيـه أحـد أوليـاء الله الصالحين حين مر من أمامه: «الداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم».

وتسلّمني «مرزاق القبـائلي» من رئيس الحضيرة التي عينت فيهـا ليعلّمني كيف أحفـر بالمثقـاب حفـرًا في لحم الجبل. وكيف أدسّ الديناميت في تلك الحفر. وكيف أفجّر تلك الأصابع الرقيقة التي تحدث دويًا كدويّ الرعد. وعلّمني كيف أكون شجاعًا دون تهوّر لأنّ أحابيل سلطان الجبل لا تحصى ولا تعدّ وسيف ملك الموت معلّق فوق رؤوسنا لا ندري متى ينزل فيقصّ الرّقاب ويفشخ الهامات.

ومات «مِرْزَاق القبائلي» بعد أن التقيته بستة شهور. سلبه شِقٌّ(*) أمواله ثم قتله قتلة شنيعة. أكل نصفه وترك لنا النصف الآخر. وتسلّمت رسالة الشّق بعد أن تسلّمت قيادة فريق العمل.

(*) روى أبو عثمان الجاحظ في كتاب الحيوان قال:
«ومن الجنّ جنس صورة الواحد منهم على نصف صورة الإنسان. له نصف رأس وعين وكذلك جميع أعضائه. وهو يقفز برجله قفزًا شديدًا ويعدو عدوًا منكرًا».
كتاب الحيوان - الجزء 6 طبعة دار الكتاب - بيروت: 1969.

## (2)

في السّوق، اكتريت «حانوتًا» جعلت منه مقرّ إقامتي، أثّثته بما تيسر من الأدوات الضرورية للحياة. وأحكمت إغلاق بابه بقفل اشتريته من مقتصديّة الشركة. وعلّقت المفتاح في حزامي. فلا أمان في هذه الأرض التي جُمّعتْ فيها الأجناس والأديان والمِللُ والنّحل. واختلط فيها المؤمن بالكافر والعربي بالأعجمي.

كانت السوق تعجّ بخلق كثير. وكان معظم الرجال يمضون وقتهم جالسين تحت حيطان الدكاكين التي بناها منذ مدة قريبة تجّار طرابلس. وجوه الرجال كئيبة تطلّ منها عيون ذليله أكلها الرّمد. وأبدانهم منهكة تغطيها أسمال بالية: بقايا برانيس وجباب من الصُّوف الخشن. واللّحاف التي تغطي رؤوسهم حال لونُها الأبيض وتحوّل إلى الرّمادي.

وكانت السوق تغلي بالأصوات التي ترتفع من كل الجهات، تنادي صديقًا. أو تطلب صدقة. أو تلعن وتسبّ. أو تعدّد حسنات سلعة. أو تطلب عفو الرب وغفرانه. أو تعلن ميعاد دفن أحد الموتى... والكل في هرج ومرج.

كنت خلال إقامتي بالحانوت في الأيام الأولى أقضّي الوقت مراقبًا هؤلاء الرّجال القادمين من كلّ مكان، من أقاصي جبال الرّيف في المغرب إلى صحاري «فزّان» بليبيا. كل هذا الخلق سمع بالأعجوبة التي أحدثها «الكُفّار» في تونس فتركوا ما في أيديهم وجاءوا. وشوّش الأصدقاء إلى بعضهم بعضًا وهجّوا دون أن يعلم بهم الأهل.

وباع البدو قطعانهم الهزيلة وقصدوا المدينة الجديدة التي بناها الروم.

وأكل الجراد صابة القمح في ضواحي «إفريقية» فترك له أهلها المكان وجاءوا إلى هنا.

وشحّت المياه في واحات الجريد فهرب «الخمّاسة» من تحت ظل

النخلة التي لم تعد تعطي تمرًا سمينًا فعوّضوه بخبز المنجم.

وأحرقت الضرائب ملاك الأراضي فباعوها للمعمرين الفرنسيين وعوّضوا المنجل بالفأس والمجرفة، والأفق الرّحب بدواميس الجبل وأنفاقه.

لم يكن أحد من هؤلاء الرجال يدري قبل أعوام قليلة أنه سيدفع ثمن الخبز الذي سيأكله من العرق الذي سيسيل فوق تراب أنفاق جبال الثّالجة.

كان جميع الرجال يرهبون لحظة مواجهة الجبل للمرّة الأولى. كنت أراهم يقفون لساعات، ساهمين أمام باب النفق. تمرّ سحابات حزن على الوجوه. ترعد وتمطر. وتعزف رياح. وتزمجر عواصف. ويحرق الجوع الأكباد، فيغامر الجبان قبل الصنديد ويخترق حواجز الخوف ويمضي يقطع من لحم الجبل ليطعم الفراخ الجائعة.

البارحة، انتدبت الشركة عاملاً جديدًا ضمن فريقي. جاء الرجل يعوض العمّ «سالم الطّرودي» الذي ودعنا بالأمس ورجع إلى «وادي سوف». قال لي إنه يعمل بالمنجم ستة أشهر وبالواحة ستّة أشهر. وإنّه يعود في كلّ سنة خلال شهور الخريف والشتاء لجنْي التّمر ولدفء البيت.

بعد أن قطعنا نصف كيلومترًا داخل النّفق، اقترب منّي الرجل وبدأ يحدثني مستعطفًا:

- كرامة لله! أخرجني من هنا أيها الرجل! لقد بلغني أنّ شقّا قتل البارحة «مرزاق القبائلي». فضحك أصحابي ووبّخه أحدهم:

- اصمت يا أخي ودعنا نستهلّ هذا اليوم على خيرّ!

فصمت الرجل ومشى وراءنا خطوات أخرى. كان كلما توغل داخل النفق ازدادت الظلمة حلكة. وشحّت أضواء الفوانيس. وكانت مشية الرجل تتثاقل. فيعود إلى الاستعطاف:

- يرحم الله والديكم! أخرجوني من هنا!

ولا مجيب.

كنا نسرع في النزول. وتزداد الخطى خفة. فالمنحدر حادّ والحيطان المسنودة بالخشب صارت وراءنا. والنفق يفتح فمًا كفم الغول. يبتلع الرجال والبغال والعربات الصغيرة والضوء الشحيح ونداءات الأصدقاء.

ويتفرق الجمع في كل الاتجاهات.

يترك العمّال الشارع الرئيسي الواسع ويشرّقون ويغرّبون. يدخلون أزقّة النفق الصغير وينقسمون أفواجًا تذهب بدورها في اتجاهات شتّى إلى أن بقينا وحدنا: خمسة رجال. كنت رئيس الحضيرة. وكان معي عاملان ومعاونان. كنّا قد تعودنا على النزول داخل النفق ما عدا هذا العامل الجديد الذي مازال يخطو بحذر وراءنا.

قال لي ونحن ننزل من القطار الذي حملنا حتّى باب النفق إنه قدم رشوة كبيرة إلى مستكتب فرنسي يعمل بالإدارة حتّى تسارع الشركة بانتدابه.

قلت له: «كم دفعت؟».

قال: «خمسمائة فرنك».

قلت: «يلزمك نصف سنة من الكدّ المتواصل حتّى تسترجع هذا المبلغ».

ففغر فاه ولم يعد يبادلني الحديث، وامتلأ المكان بالصمت إلى أن همهم:

- بعد أن بعت غنماتي ندمت. ولكن هل ينفع النّدم؟

وغطّت وجهه الكآبة والحزن فعاد يحدّث نفسه:

- لقد غرر بي ابن عمّي! جاءنا كالعريس. رأسه حليق وثيابه نظيفة وجيبه ممتلئ بالفرنكات، وقال لنا: إن الفلوس، في منجم الفسفاط ملقاة على قارعة الطريق. فصدّقته، أنا الغبي، وفرّطت في رزقي وجئت إلى هنا.

وتسمّر الرجل في مكانه وبدأ يصيح صياحًا هستيريًا:

- أخرجوني من هذا الجحيم يا أولاد الكلب!

همّ عامل بالعودة إليه. قال:

- سأذهب لأؤدّبه!

فلم أتركه يذهب وقلت له:

- اتركه يصيح يا أخي! سيؤدبه ظلام المنجم!

فجرى الرجل وراء خطانا حين رآنا لا نلتفت إليه.

رفعت الفانوس فرأيت وجهه وقد ابْيَضّ من الرعب. ورأيت الشرر يتطاير من عينيه. فابتسمت له. لكنه لم يعِرْ ابتسامتي التفاتًا. وعاد إلى العويل:

- هل سأعمل تحت هذا الجبل؟ هل سأظلّ نصف يوم تحت هذه الأكوام من الحجارة؟ أبدًا! لن يكون هذا! سأضرب رأسي بهذه الفأس إن لم تخرجوني من هنا!

ووجه نصل الفأس إلى جبهته. وهمّ بشدخ رأسه. لكنني اختطفت الفأس من يده. وضربته بجمع يدي على وجهه. فسقط يتمرغ في التراب. وأجهش باكيًا:

- خذْ فأسي ومعولي وجرابي هدية مني ورافقني إلى باب النفق يا سيدي!

واختطف يدي التي ضربته بها وراح يلثمها بقوة.

وحاصرني الندم. وشدد عليّ الخناق فقلت له برقة:

- وحّد الله يا رجل وتوكّل عليه، فهل نفسك أغلى من نفوس كلّ هؤلاء الرّجال؟!

قال: «لا والله! ولكنني مُستغربٌ. فكيف تقبلون العمل هنا ولا تخافون الموت؟!

فردَدْت على حديثه متفقّهًا:

- الموتُ لا يُنجيك من آفاته حِصْن ولو شيّدته بالجندل.

قال:

- «كفّ عن حديث العلماء وكلمني بالعربي!»

فضحكت وأشرت إلى الباب الذي دخلنا منه منذ نصف ساعة وقلت له:

- «وراءك الصراط المستقيم! عد من حيث أتيت، فستجد رحمة الربّ».

التفت فلم ير سوى كتلة من الظلام الدّامس فهرّ كالجرْو المضروب وناح:

- «أرني الطريق إلى رحمة الرب يا أخي. أنتم تعملون داخل قبر. والموت قريب منكم. وأنا لا أريد أن أموت الآن. مازالت لي مهام كثيرة أريد أن أقضيها!».

فعدت أُطمّئنه وأعده خيرًا إلى أن وصلنا إلى مكان العمل. فطلبت منه أن يستريح فوق كدس أدباشنا وأن يراقبنا من بعيد.

حفرت داخل جدران الجبل حفرًا عميقة بواسطة المثقاب ثم حشوتها بأصابع الديناميت ورُبطَت الأصابع بخيوط جهزناها بصواعق. وطلبت من رفاقي أن يبتعدوا قدر الإمكان. وبدأت أعدّ الانفجارات: واحد... اثنان... ثلاثة... سبعة. وكان البدوي يراقب المكان مشدوهًا. هرب من فوق كدس ثيابنا حين سمع الانفجار الأوّل ولكنه عاد إلى مخبئه لأن أصوات الانفجارات كانت تأتي من كلّ الأمكنة. فرؤساء الحضائر يستعدون للعمل في نفس الوقت حتى أنّ الجبل يتحوّل إلى ساحة معركة محتدمة لا تهدأ إلا حين تُبقر الجدران ويسيل من بين شقوق الصخور دم الجبل وقد تحوّل إلى تراب تفوح منه روائح الحيتان والحيوانات البحرية الأخرى التي ماتت هنا منذ ملايين السنين.

وأزعجت الانفجارات الشّق وفريقه. فاختبأوا في زوايا الأنفاق

متربصين بالرجال. بحثوا عن الغافل فأكلوه وعن الشاب فشربوا دمه. وتفرقوا في الأمكنة البعيدة في أعماق الجبل يسلبون وينهبون. فتكدّست أنصاف الجثث في كل مكان. وملأ الهلع القلوب الواجفة.

ظلّ هذا القتل مريبًا. لم يجد له عملة المنجم تفسيرًا إلى أن اكتشف «عزيز السلطاني» شقّا(*). ذهب ليتفقّد العامل الجديد فرأى الشّق باركًا فوق صدره يمصّ الدم من عرق فصده في عنقه. والرجل يخبط برجليه ويخور خوار الثيران القتيلة. التقط «عزيز» بلطة ورمى بها ظهر الشّق. فطنّت على الصخر ولكنها أخطأت الهدف. التفت «سيد الجبل» بعين حمراء تقدح شرارًا وقفز برجل واحدة وعدا كالريح تاركًا وراءه رائحة كريهة. رائحة الجيف النتنة.

## (3)

كنّا خمسة رجال واقفين قريبًا من باب المغارة الجديدة التي بدأنا بشقها في قلب الجبل. لمّا أعيانا الوقوف جلسنا القرفصاء على الأرض وعيوننا تتابع تساقط قطع الحجارة هنا وهناك في الأماكن التي لم تُسند بعد بقطع الخشب فظلّت عاريّة تفْغر فَاهًا وتقذف بالتّراب والوحيد بين اللحظة والأخرى.

امتدت الأيدي بحذر إلى قطع الخبز وحبّات الطماطم والبصل. ودهست الأضراس الطعام بدون شهية، فالخطر ماثل أمام أعيننا. والشّق لابدّ في الأمكنة يترقّب غفلة الرجل ليفتكّ منه روحه ويضعها في جيوبه الكثيرة ويهرب بها إلى الأماكن القصيّة.

كان معي عاملان ومعاونان. المعاونان طويلان ونحيفان. فمهنتهما تتطلّب طول القامة وكثيرًا من الشجاعة، يعدّان لي أصابع الديناميت،

---

(*) «كثيرًا ما يعرض الشّق للرجل المسافر إذا كان وحده. فربما أهلكه فزعًا، وربما أهلكه ضربًا وقتلاً». أورده الجاحظ في كتاب الحيوان المذكور سابقًا.

ويربطانها بالخيوط والصّواعق حين آكون بصدد حفر ثقوب في الصخر بمغزلي الدّوار. بعد ذلك نتعاون جميعًا على حشو هذه الأصابع داخل الثقوب في قلب الجبل. ونُشعل الفتائل ونهرب بعيدًا ليدكّ الديناميت الصخور ويهشمها تهشيمًا، فتتهار مختلطة بالفسفاط و«المارْني»(*) وأسنان الحيتان العملاقة والقواقع المتحجرة لحيوانات البحر. ونترقب إلى أن يعود للجبل هدوءه فنعرف أنّ ساعة الجذّ قد آن أوانها. فيدحرج العاملان عربات الفسفاط الصغيرة على سكة الحديد. وينهمك الجميع في رفع التراب وملء العربات ونهر البغال الحرونة، والصياح، والغناء، والتّقاذف بالسّباب والنّكات الماجنة.

وأستغلّ لَهْوَهُمْ وجدّهُم فأندسّ من جديد داخل المغارة. أصلح ما أفسدته الانفجارات. وأُسند الخشبات التي أمالها تساقط الحجارة والتراب. وأُغطّي السقف بقطع من الخشب الصلب لحمايتنا من انهيارات جديدة.

كُنّا يومها مشغولين بفرحنا، فقد أنجزنا عملنا كاملاً وبدأنا نستعد لمغادرة النفق حين طن الجبل فوق رؤوسنا. أعرفُ بالحدس أن هذا الطنين نذير شؤم. وأعرفُ أيضًا أنه بداية لانهيارات صخرية لا قدرة للخشب على تحملها. فأشرتُ إلى الجميع بالانتباه الشديد، والحذر، والإصغاء إلى همس الحجارة.

وتكرر الطنين، لطيفًا، خفيفًا في المرات الأولى ثم صَرَّتْ الخشبات المسنودة على السقف صريرًا موجعًا. وسالتْ منها قطرات ماء. فدعوتُ الجماعة إلى الفرار والاختباء في أماكن حصينة. ولم نكد نُغادر المكان حتى وقع الانفجار العظيم. تهشمت الخشبات، وتطايرت أعوادها عشرات الأمتار. وهطلتْ من السقف حجارة من سجّيل ملأت الأركان حتى فاضت. وتدافعت نحونا هادرة كالرعود المكتومة. ولم يعد للجبل

---

(*) المارني: صخور طينية مختلطة بالفسفاط.

هدوءه إلا بعد ساعة أو أكثر.

نظرتُ إلى أصحابي فوجدتهم صامتين. ورأيتُ صُفرة الموت تجتاح وجوههم. وكان قلبي يدقّ بعنف الطّبول.

كنتُ أول من انسلّ من المخبأ. فتبعني البقية.

اقترينا بحذر من مكان الانهيارات ووقفنا نُنْصتُ إلى صوت الجبل فعرفتُ أنّ ثورته قد انتهت ولكن إلى حين وأنّ ساعة الجدّ قد حلّتْ. فقد تكدّس تراب الفسفاط في كل مكان وستكون غنيمتنا كبيرة هذا اليوم، فلنْ نكتفي بملء ما علينا من عربات وإنما سنزيد فوق الواجب عربات أخرى ستُحسب لنا يوم القبض. فشمّرنا من جديد على السواعد. وأشرعنا الفؤوس. وعوّلنا على الله لما تناهى إلى أسماعنا صوتُ استغاثة يأتي من بعيد. كانت أصوات كثيرة تتصايح وتطلبُ النجدة.

«إلينا يا رحمة الربّ...

إلينا يا غضب الأجداد...

إلينا فإنّنا نموت...

إلينا يا أولاد الحلال...

إلينا يا أولاد الكلب...

إلينا يا أولاد الزّنى...

إلينا فإنّنا نختنق...

إنّنا نختنق... نـ... خْـ... تـ... نـ... ق....».

كانت الأصوات غريبة. وكانت تصلُ إلى موقعنا منهكة من التعب فكأنها قَطَعتْ آلاف الأميال، أو آلاف السنين. وكنتُ أحسّها هزيلة، بلا طعم رغم المرارة الساكنة في توسلاتها، وفي سبابها.

وكنا، كلما وصلت دفعة جديدة من هذه الأصوات يزداد استغرابنا أكثر. فنحن نحفرُ في مقطع جديد لم يدخله قبلنا أحد!

فمن أين تأتي هذه الأصوات؟

التفتُ إلى أصحابي فوجدتهم، حيارى، يصيخون إلى الجهة التي تأتي منها الأصوات غير مصدقين لهذه الهواتف البعيدة. ثم رمينا المعاول والفؤوس وجلسنا على كدس من الحجارة إلى أن قال أحد المعاونين:

- لماذا لا نذهب إلى نجدة هذه الأصوات؟

- ماذا تقول؟ ردّ عليه المعاون الآخر، وهل هنالك رجال وراء هذا المقطع؟ من أين دخلوا ونحن نبعج بطن الجبل للمرة الأولى؟

رد عليه عامل ظلّ صامتًا كل هذه المدة:

- ربما وُلدوا داخل الجبل، وهم يطلبون الآن الخروج إلى النور بعد أن شبّوا واشتدّ عودهم!

رأيتُ على ضوء الفوانيس المعلّقة على الأعمدة الغضب على وجه المعاون الذي انطلق صائحًا:

- أتسخرُ منّي يا ابن الفاجرة! هل أصابك الصّمم؟ ألا تسمع النداءات والاستغاثات؟ سأدقّ عظامك بهذا الحجر!

ومدّ يديه نحو خناق الرجل.

لكن الأصوات عادتْ تقرع أسماعنا بوضوح هذه المرة:

- إليّ يا أولاد القحبة إنّي أموت!

فتراخت قبضة المعاون على عنق الرجل ونظر نحوي يطلب المشورة.

قلتُ له، وأنا مضطرب شديد الاضطراب:

- تعالوا ورائي، ولكن حاذروا حتى لا نكون لقمة سائغة للشّق وأصحابه.

نظر الرجال في وجوه بعضهم مدة، ثم بدأنا في التسلل بين أكوام الحجارة والتراب. نتحرّك بحذر دافعين بالحجارة في كل الاتجاهات إلى أن ظهر لنا نفق صغير. لا يزيد قطره على خمسين سنتيمترًا. نفق يمتدّ بعيدًا داخل بطن الجبل.

كان ضوء الفوانيس لا يصل إلى نهاية النفق. وكانت الحيرة على الوجوه.

قال المعاون الذي اقترح الذهاب إلى نجدة الأصوات:

- لماذا لا نواصل المسيرة؟ هل أصابكم الخوف؟

ونظر في وجهي بتحدّ. فرفعتُ يدي عاليًا وصفعته بعنف قائلاً:

- لستَ أشجع منّا يا ابن الزانية. اتركنا فقط نحل هذه الورطة بهدوء!

رأيت التشفي على وجه العامل الذي خنقه هذا الرجل قبل قليل فندمت على فعلي. ونظرت نحوه فرأيت في عينه غلاً وغيْظًا مكتومين. فزاد ندمي على فعلتي لأن القتل يصبح هذه الحالة أسهل على الإنسان من شربة ماء. فماذا لو نزل على رأسي بفأسه أو بحجر من هذه الحجارة المبعثرة في كل مكان.

قلت له لأخفّف من غضبه:

- المعذرة يا أخي! لقد فقدتُ أعصابي!

لكنه لم يرد على كلامي. فاقترب منّي المعاون الآخر يشدّ أزري. وظلّ العاملان الآخران واقفين في مكانيهما، إلى أن غضّ الرجل بصره وقال:

- قبلت اعتذارك هذه المرّة، لكن لا تعد إلى ضربي وإلا شَدَخْتُ رأسك بحجر.

قلت في نفسي: «هذا ما كنت أخشاه! فما أسهل أن يصرعني داخل هذه القطعة من الجحيم!».

وطلبت من الجماعة أن يترقبونا وألا يغادروا هذا المكان حتى نعود. ثم أشرت إلى معاوني بالزحف ورائي. وتسلّلت داخل النفق كحنش. كنت أدفع أمامي فانوسًا. وكان الفانوس ينطفئ بعد كل عدّة أمتار. وامتلأ فمي وأنفي بالتراب. وسال على عينيّ العرق فصارتا تحرقانني. وكان المعاون يدفعني من رجليّ دون أن يفوه بكلمة.

وواصلت الزّحف في الظلام بعد أن أعياني إشعال الفانوس كلما انطفأ. كنت أمضي داخل رحم الجبل أبحث عن نهاية لهذا النفق. وكنت كلما مددت يديّ إلى الجانبين لمست الجدران وحطّ السقف على رأسي. وأحسست بشدّ المعاون على رجليّ يرتخي داخل النفق ثم سمعته يتكلم:

- هيا بنا نعود يا عزيز! أرى كأنْ لا نهاية لهذا النفق!

رددت عليه بحزم:

- اصبر يا صديقي ولا تبتئس، إني أرى الفرج وراء أبواب الجبل. واطلب رحمة ربّك، إن رحمة الرب قريب.

أحسّ بالسخرية في كلامي فتماسك. وعاد يشدّ على رجليّ كأحسن ما يكون الشدّ.

وتواصل زحفنا في الظلام الدامس إلى أن لفحت وجهي نسمة باردة. وأصبح المكان فسيحًا. فلا جدران تضغط على جنبي. ولا سقف فوق رأسي يكتم أنفاسي.

مددت يدي إلى الولاعة وأشعلت عود ثقاب. وجدت نفسي في الضوء الشاحب وسط قاعة فسيحة يزيد ارتفاعها على ثلاثة أمتار وتمتدّ أمامي بعيدًا. فعدت إلى الفانوس أُشعله. ثم وقفت متثاقلاً. كان معاوني قد سبقني إلى الوقوف وكانت علامات الهلع مرسومة على وجهه. رأيته يشير بإصبعه إلى الركن الشرقي من المغارة فاتجهت بنظري إلى حيث يشير. وهالني ما رأيت! كُتلٌ من العظام الآدمية والحيوانية مُكدسة فوق بعضها. رؤوس بغال وأقحاف رؤوس بشر. وفكوك سفلية وعظام لأذرع وأرجل و... في الجهة الأخرى من المغارة، رأيت هيكلاً عظميًا قائمًا على رجليه. كانت بقايا ثيابه قد تكدست تحته وفانوسه مرمى على جنبه، ورأسه مائل قليلاً إلى الوراء كالمتكئ على الجدار. ورأيت على الضوء الشاحب بريقًا أخاذًا. اقتربت من البريق فإذا هي قطع نقود ذهبية. التقطتها بيد مرتعشة ووضعتها في كفّي. ورحت أمعن النظر فيها.

اقترب مني المعاون وبدأ يتفحصها بأصابعه مذهولاً. تركت له القطع الثلاثة وابتعدت داخل النفق الذي صِرْت قادرًا على المشي فيه واقفًا. فجرى معاوني ورائي بعد أن أطلق صرخة استغاثة خفيفة وطلب مني أن أترقبه، ابتسمت، ووجهت ضوء الفانوس إلى ناحيته فالتصق بي حتى أحسست رائحة أنفاسه الحارة تلفح وجهي. وتساءل في هلع:

- هل أكل الشّق وأصحابه كل هذا الخلق؟

فقلت له:

- لقد اكتشفنا مقبرة جبل «الوصيف» هنا هلك أكثر من خمسمائة عامل في العام الأول من هذا القرن!

وأضفت هامسًا:

- وتلك الأصوات التي استمعنا إليها هي استغاثات أرواح أولئك العملة وقد ظلّت هائمة تطوف في أنفاق الجبل باحثة لها عن مخرج، إلى أن انهار اليوم الحاجز الذي سدّ عليها الطريق فوصلت إلينا ضعيفة واهنة. وها هي ذي تقودنا إلى المقبرة.

ازداد معاوني رُعبًا فعاد يلتصق بي، فدفعته عني بلطف وطلبت منه أن يعود إلى الهدوء. فأطلق صوتًا كالنحيب:

- وكيف تريدني أن أهْدأ، وأنا أحسّ برفيف أجنحة أرواح هؤلاء الموتى الذين أكلهم الشّق!

فقلت له ساخرًا:

- لقد طارت الأرواح وخرجت من الثقب الذي أحدثناه منذ حين في قلب الجبل.

وعاد إليه هدوءه بعض الشيء. فواصلنا المسير داخل النفق. كانت عظام الموتى مكدسة في كل مكان على مسافة تزيد على طوال كيلومترين. وكانت رؤوس البغال تبدو كبيرة جدًا بعد أن انحسر عنها اللحم والجلد. فيثيرني منظرها وسط عظام الآدميين. ويركب رأسي

الجنون فأعبث برؤوس البغال. أحوّلها من مكانها وأضعها على هياكل عظام بشرية. وأقف أتأمل المنظر الغريب.

آدمي برأس بغل. وأحدّث نفسي قائلاً:

- «أولسنا حقيقة بشرًا برؤوس بغال! لو لم نكن على هذه الشّاكلة لما قبلنا العمل في هذا الجحيم لنتقاضى بعض الفرنكات التي لا تكاد تفي بالحاجة ثم نبذرها في الحانات أو في المواخير».

وبدأت أدور حول نفسي وأصيح:

- أنا آدمي برأس بغل!

وأقف هُنيهة لأردّ أنفاسي ثم أعود للدوران والصراخ إلى أن كدت أفقد وعيي. فعدت أدراجي مترنحًا كالثمل. بحثت عن معاوني فوجدته قريبًا من باب النفق وقد أقعى على مؤخرته. قال لي:

- «هيا بنا نعود إلى أصحابنا، لقد ضاق نفسي ولم أعد أستطيع الوقوف».

قلت له:

- «معك الحقّ يا رجل. فلا مكان لنا هنا لنَتْرُكْ هؤلاء الموتى يستريحون في رقدتهم الأبديّة».

لم أكد أُنهي كلامي حتّى رفرفت فوق رأسي أجنحة. وأحسستُ بهواء خفيف يهبّ على وجهي. فأسندتُ معاوني. وجعلته يتكئ على كتفي وعدنا نقرع الباب الذي دخلنا منه هذه الجبّانة المنسية في أعماق الجبل.

بعد جُهد مُضن عُدنا من جديد إلى المكان الذي انطلقنا منه. كان العمّال الذين تركناهم في حراسة المكان قد اختفوا، فحملتُ معاوني الذي ما عاد يطيق المشي، على ظهري وجررته جرًّا إلى الخارج، فوجدتُ الجماعة أمام باب النفق. كانوا في حيرة من أمرهم. لا يدرون هل ينهون الخبر إلى إدارة الشركة أم يسكتون عن الأمر حتّى الصباح. وها هي ذي عودتنا تُنهي المسألة.

سألني أحدهم عمّا أصاب المعاون. فقلتُ له إنه مريض. وطلبتُ منه أن يُعينني على حمله إلى داره، فأحضر لي عربة وضعناه عليها وحثثنا السير، فقد هبط اللّيل وغطى المكان بكتل كثيفة من الظلام.

وكان معاوني يهذي طول الطريق. كان يقول إنه وجد كنز الشّق الذي سلبه من العمال، وإن داخل النفق دارًا ملأى بقطع الذهب. ثم يصمتُ فيستحثه الآخرون ويلحون عليه ليكلمهم. فيقول لهم إنّ كلبًا يحرس هذا الذهب وقد منعه من الاستئثار به. ثم أخرج من جيبه قطع الذهب الثلاث التي وجدتها في المغارة الأولى. فقلتُ لهم إنه يهذي وإن هذه القطع هي كل ما وجدنا داخل المغارة. فرأيت شكًّا على وجوههم وتكذيبًا لحديثي. فتركتهم وشأنهم وانصرفتُ. كانوا قد تحولوا إلى أوادم برؤوس بغال فتجمعوا حول رفيقهم وطلبوا منه أن يحكي لهم عما صادفه في المغارة. فقال لهم إن الذهب يلمع على التراب لمعان عيون القطط في الظلمة. وإنني كنتُ أمنعه من تجميعه وكنتُ أهدّده حتى لا يفضح الاكتشاف، لأنني أريد أن أستأثر بالكنز. وظهر الغضب على عيون أصحابي فزدتُ من سرعتي حتى لا ينالني منهم مكروه.

بعد ثلاثة أيام التقيتُ واحدًا منهم في السوق، قريبًا من بيتي. كان زائغ البصر ومحمومًا. مسكني من يدي وقادني إلى كرسي في مقهى «بوطالب الغرياني» وجلس أمامي ليقول لي إن أصحابي قد عادوا إلى النفق بعد أن أوصلوا المعاون إلى بيته. ثم بدأ يحلف مؤكدًا أنّ كلبًا أسودَ، ضخم الجثة كان يحرس باب النفق. وكان يمنعهم من الاقتراب من الكنز. وأنهم عادوا مرة أخرى مصحوبين بقطع من اللحم أطعموا منها الكلب. لكنه بعد أن أكلها ازداد شراسة وبدأ ينبح بصوت كالرعد ففروا هاربين وأبصارهم مخطوفة ببريق الذهب المكدس في كل مكان.

وقال إنهم لم ييأسوا فغافلوا الكلب الذي نام بعد أن دسوا له المخدر في اللحم وتاهوا داخل أنفاق الجبل فوجدوا عظام الأوادم والبغال

مكدسة حيث ولّوا وجوههم.

وفاجأهم وصول الشّق وأصحابه فأربك خطتهم. سدَّ أحدهم باب النفق. وتقافز البقية وراءهم.

كانوا كلّما أمسكوا أحدهم نزعوا عنه ثيابه وتداولوا على نكاحه الواحد تلو الآخر.

نكحوهم نكاح البهائم وتركوهم صرعى ثم ولّوا الأدبار.

وسألته:

- كيف نجوتَ منهم؟

فقال:

- أعمى الله بصائرهم ونجّاني كما نجّى إبراهيم من النار!

ألم تقل لنا أكثر من مرة «إنّ الله بصير بعباده. يُجيبُ دعوة الداعي إذا دعاه». فدعوته وأنا كظيم أن نجِّني من هذا الخطب. فنجوتُ.

فقلتُ له: أنت تختلق هذه الحكاية. وكلامك هذا كذب في كذب. فاستشاط غضبًا وبدأ في سبّي ولعنّي قائلاً إنه سيجمّع حولي كل من يدبّ في هذه السوق ليفضحني. لكنني لاينْتُهُ حتّى هدأ، ثم حدثته عن العمال الطرابلسيين الذين عملوا في المنجم ساعة وقوع الحادث والذين كانوا يحولون فرنكات رواتبهم إلى قطع ذهبية يخيطون عليها بدلاتهم التي يلبسونها كل يوم حتى لا تُسرق منهم في المبيتات الجماعية التي بنتها فرنسا لعمّالها. وإن هذه القطع هي ذهب «الشق». لكنه رفض هذا التفسير. وعاد يُهدد بفضح هذا السر إذا لم أمكّنه من نصيب من الذهب. وقام. رأيتُ رأس بغل ينبتُ فوق كتفيه فقلتُ له:

- تعال غدًا صباحًا لأُعطيك نصيبك. ولكنّه لم يعدْ أبدًا فقد مات قبل أن يصل إلى بيته.

# الفصل الرابع

## بغايا لعموم عملة

## شركة فسفاط قفصة

# الباب الحادي عشر

***وفيه حديث عن حبّ «ميلود الطّرهوني» لـ «حسيبة النائلية»، وكيف منع «رجال القبائل» نساء الماخور عن العمّال الطرابلسيين. وأعاجيب تتعلق بنبوءة عرافة التقت «الطرهوني» في الصحراء. وملائكة نزلت من السماء لتواري في ثرى «المتلوي» قتلى الفتنة «الطرابلسية» إلخ.. إلخ...***

وكبُرت حكاية «الشّق» وجنده فشغلت هذه البلية الكبار والصغار مدة طويلة إلى أن طفت على السطح أحداث الفتنة التي أشعلها «ميلود الطرهوني» بين «الطرابلسية» و«رجال القبائل». فهزّت هذه الأحداث القرية هزّاً عنيفاً وتناسى الخلق حكايات الجنّ.

ولكن إلى حين...

كان معاوني «ميلود الطرهوني» طرابلسيّاً غريب الأطوار. رجل يُخاطر بحياته في كل الأوقات دون أن يطرف له جفن. ولكنه يفلت دائمًا من بين براثن الموت في اللحظات الأخيرة. أخرجناه ثلاث مرات من تحت الردم. في المرة الأخيرة يئسنا من عودته إلى الحياة، وبدأنا نبكيه، لكن صديقه «صالح البوسيفي» ظلّ ينفخ داخل حنجرته إلى أن رمشتْ جفونه، وحرّك شفتيه. فتركناه في مكانه وعُدْنا نمدّ سكة الحديد داخل النفق، ونملأ العربات الصغيرة بالتراب، ونخبط البغال على أردافها. ونزجرها حتى تجرّ العربات وتسرع في العدو. وعند نهاية الوردية عاد معنا إلى حي الطرابلسية ليشرب الشاي. ويسب ككافر. ويُعدّ لسهرة

الليل ولمجلس الخمر. فهو يُنفق فرنكاته على النساء والخمر. شعاره: «اللي جَابَهْ النّهارْ يدِّيهْ الليّلْ» مُبذِّرًا ليلاً ما يكسبه نهارًا قائلاً لُمْنتقديه:

- من يضمن لي منكم أنني لن أترك مُخّ رأسي غدًا على صخور النفق!

فتكفهرّ الوجوه. وينفضّ من حوله لائموه، فيشيّعهم بقهقهة وسباب مُشين.

البارحة، عندما قابلته في الحانة، كان على غير عادته حزينًا ومهمومًا. عابثته وحدّثته عن «حسيبة النائلية» فلمْ يتجاوب مع عبثي. فعرفتُ أنّ الأمر خطير. فتركته لشأنه وبدأتُ أبتعدُ، لكنّ صوته المشحون بالفجيعة ردّني إليه:

- تعال يا «عزيز»! ما عهدتك تضجر مني بهذه السرعة!

فقلت له:

- «حالك البائس لم يشجعني على مواصلة الحديث معك».

فقال:

- «أعرف أنني سأكون سبب بلاء شديد لأهلي ولكن لا رَادَّ لقضاء الله!».

قلتُ له مازحًا:

- «ولمَ ذلك يا "بَرَاقشُ"!».

فقال:

- «منعني جماعة من رجال «القبائل» الجزائريين من الوصول إلى «حسيبة» وهي كما تعرف، أغلى عندي من روحي».

قلت:

- «ولماذا يمنعونها عنك، وهي تعمل في الماخور وأنتَ تدفع ما فيه الكفاية؟».

قال:

- «رجال «القبائل» قرّروا ذلك وانتهى الأمر».

قلتُ:

- «وماذا قرروا؟».

قال:

- «سيمنعون بناتهم عن بقيّة الرجال في هذا المنجم بدعوى أنهنّ جزائريات، وأنّ شركة الفسفاط جاءت بهنّ من جبال «جرجرة» للترفيه عن العمال الجزائريين فقط».

وضرب كفّا بكفّ وهو يتأوّه:

- يمنعون عنّي «حسيبة» هؤلاء الأوباش! والله لن يمنعني عنها أحدٌ. وسأقاتل من أجلها ملك الموت وسأقتله!

وصار يخبط رأسه على الحائط. فهدأتُ من ثورته وقلتُ له:

- قُمْ بنا إلى دار بنات «أولاد نائل» فقد اشتقتُ أنا أيضًا إلى غنائهنّ ورقصهنّ ونكاتهنّ البذيئة.

فظل صامتًا مدة ثم قام وهو يقول:

- لا فائدة يا أخي! فلن تنفع وساطتك مع هؤلاء الأوباش.

ومشينا باتجاه الماخور. حاذينا حيّ «السّوافة» بقبابه البيضاء التي يكثر تحتها الفساد وتقلّ البركة. واقترينا من الحي «الأوربي» فَلَفَحَنَا هواء مُنعش تفوح منه روائح الورود والياسمين. وواصلنا المسير حتى وصلنا حي «المحطة» فرأينا القاطرات جاثمة فوق سكك الحديد كأنها وحوش أسطورية خرجت من باطن الأرض. تنفث دخانًا أسود وتطلق بين الحين والآخر زعيقًا وخُوارًا!

رأيتُ نساء البدو القاطنين في المداشر القريبة يتقاتلن قرب صهاريج الماء. ويتقاذفن بالسباب والسطول وبالكلام البذيء. ولا يهدأن إلا حين يطلّ ناظر المحطة بكسوته الشبيهة بلباس الجندرمة. فينهرهُنّ. ويطردهنّ بعد أن يحكم إغلاق حنفيات الماء.

وغير بعيد عن المحطة، تسكنُ بنات «أولاد نائل». عشر بنات جاء بهنّ واحد من متعهّدي الانتدابات الذين أرسلتهم السلطات الفرنسية لجلب العمال من الجزائر والمغرب فعاد ومعه هؤلاء البنات. وأعجبت الفكرة مسؤولي الشركة فأقطعنهُنّ دارًا بعيدة عن الأحياء المأهولة بالسكان المسلمين. وألزمنهنّ بالعمل لفائدة الشركة. وبعدم الامتناع عن كل طالب لذّة على أن يدفع بالحاضر ومسبقًا.

وسارت الأمور على أحسن حال مدة سنة وبعض السنة. كانت البنات فيها قرّة أعين العمال العرب والكفار من فرنسيين وطليان وروس وإسبان ومالطيين وبلغار وبولونيين والناس أجمعين.

تفنن متعهدو الانتدابات في إحضار الجميلات من البنات إلى المبغى فاختاروا الطويلة والسمينة بعد أن عرفوا ميل العرب إلى البدينات. وأفرطوا في التجديد. صاروا يسفّرون القديمات ويعودون بغيرهنّ كلما أحسوا بملل مرتادي الحي وضيقهنّ من نساء الماخور.

وكان أكثر مريدي هذه الدار، العمال الطرابلسيين، هناك يسكرون ويعربدون ولا يعودون إلى مساكنهم البائسة التي بنتها لهم الشركة، إلا فجرا. فينامون بضع ساعات يفيقون بعدها على عواء صفّارة المنجم. فينتفضون كالضباع ويهرولون باتجاه القطارات التي تحملهم كل صباح قريبًا من أبواب الأنفاق.

كان الجو هادئًا ونحن نقترب من الماخور. وكانت أضواء خافتة تجاهد للخروج من وراء زجاج النوافذ حين اقتربت من الباب. ففاجأني صوت غليظ:

- هيه! أنت! قف مكانك!

التفت أبحث عن صديقي «الطرهوني» فوجدته يقف غير بعيد مني. وخرج لنا من الظلام عشرة رجال مسلحين بهراوات وبسكاكين وصار قائدهم يلوّح بمسدس ويدور حولنا.

عرف القائد «ميلود الطرهوني» فزجره:

- ألم أطلب منك الابتعاد عن هذا المكان وعدم الاقتراب من هنا مرة أخرى!؟

ودفعه في صدره بجمع يده. حاولت الوقوف بينهما فانهالت على صدغي لكمة لم أعرف مصدرها وسمعت «الطرهوني» يصيح:

- أريد أن أقابل «حسيبة» يا أولاد الكلب.

وصمت بعد أن دكته الركلات دكًا، فهوى على وجهه مغشيًا عليه. جرّه رجلان من رجليه ورميا به قريبًا من محطة القطار فتحاملتُ على نفسي ولحقتُ به. ظللتُ أرشّه بالماء وأضرب برفق على وجنتيه حتى أفاق وعادَ إليه وعيه. فصار يُنهْنهُ ويبكي بصوت خافت.

فقلتُ له: «كُفّ عن هذا البكاء يا رجل، فعهدي بك رابط الجأش شجاعًا!».

فردّ: «لقد أبكتني مذلّتي في هذه الديار الغريبة. لو كنتُ في البلاد، لما قدر عليّ هؤلاء الزّعران يا أخي».

- غدًا، ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ.

ثم اتكأ على كتفي، ويمّمنا طريق العودة. وصلنا فجرًا إلى «حومة» الطرابلسية فقصدنا المسجد الجامع. البناية مسقوفة بجريد النخل وسعفه. يقوم على الخدمة فيها رجل ضرير، مُقرئ للقرآن، يُدرّب الصبيان في الصباح على القراءة والكتابة وحفظ بعض الآيات من قصار السور ويُصلي بالمؤمنين الصلوات الخمس كل يوم. صوته العذب يقرأ به الذكر الحكيم آناء الليل وأطراف النهار، ويرفع به الآذان في ميقاته.

دفع «ميلود الطرهوني» باب الخشب ودخل إلى المسجد. أفاق الرجل الضرير على صوت الباب وهو ينفتح، فاعتدل في جلسته وأصاخ السمع. نزع «الطرهوني» حذاءه ومشى على الحُصُر التي تُغطّي الأرضية حتى وقف عند رأس الرجل. بقي جامدًا في مكانه دون أن يتفوه بكلمة إلى أن

قال الضرير:

- أخيرًا جئتَ يا ابن بهية! إني أشمّ في رائحتك نُذُر الموت والبَوار!

فقال «ميلود الطرهوني»: «لقد أهان أجلافُ بلاد «القبائل» كرامة رجال الصحراء. ولابد من الانتصار لكرامتنا يا شيخنا!».

فقال الرجل الضرير:

- أعرف أنك منذور للدم يا رجل، ولكن سأحاول أن لا تعلو كلمتك على الحقّ هذه المرة يا ابن بهية، وإلا فلن تقوم لكم قائمة بعد اليوم يا أهل ملّة الخراب.

وتركنا واقفين وذهب يرفع أذان الصبح بعد أن اعتلى حائطًا قصيرًا.

في الصباح، تجمع الرجال كعادتهم في السوق. بدوٌ جاءوا من تخوم الصحراء. ورجال هاربون من الخدمة العسكرية. وعُيّاق قتلة مازالت ثيابهم ملطخة بدم ضحاياهم، جاءوا إلى هذه الأصقاع المنسية يخبئون جرائمهم داخل أنفاق الجبل، ويموتون دون أن يعرف أحد أسماءهم الحقيقية أو البلاد التي جاءوا منها. يعملون في منجم من مناجم قفصة شهرًا ليغادروه إلى منجم آخر. فُيبدلون أسماءهم وشخصياتهم. ويتزوجون. أو يطلّقون. ويدفنون ابنًا أو بنتًا في جبانة يستحدثونها في التوّ والساعة. يحفرون بضعة أشبار في الأرض الصلدة. ويوارون الطفل الثرى دون أن يقرأ أحدٌ على روحه شيئًا من كلام الربّ. ويغادرون المكان ليخرج من ذاكرتهم بعد أن يختفوا وراء أوّل هضبة. وتطلّ الكلاب السّائبة على الوليمة. تتعارك فيما بينها. ثم تنبشُ التراب وتتخاطف اللحم الطري. وتنهش الجثة في طرفة عين. ثم تعوي وتختفي داخل شعاب الجبل.

كان «ميلود الطرهوني» ذاهلاً وهو يُكلم أبناء ملّته من الطرابلسية ويحرضهم على الأخذ بالثأر من رجال «القبائل» ويذكّرهم بالقتلى الذين ماتوا في حضيرة العمل التي أشرف عليها «حَمُّو القبائلي» وبالمهندس

الفرنسي الذي طرد أكثر من عشرين عاملاً من ذويهم جرّاء وشاية ابن عمّه «بُوشعيب».

وراح يُعدّد المظالم التي ارتكبها رجال «القبائل» في حق الطرابلسية، وحلقة المستمعين تكبر. والهَمْهَمة تعلُو. واللّغط يرتفع. ونُذر الشر تطير في الجو وترتفع بارتفاع حرارة النهار إلى أن صارت لا تُطاق فقال قائل:

- الليلة! سنذهبُ مرة أخرى إلى دار بنات «أولاد نائل» وسنتحدّى رجال «القبائل» نحن لا نطلب أكثر من حقّنا في هؤلاء القحاب!

ونسي الرجال «حمّو القبائلي» وابن عمّه «بوشعيب» ليذكروا الغَبن الذي لحقهم جراء غلق أبواب الماخور في وجوههم! وضربوا موعدًا للقاء بعد صلاة العشاء!

في الموعد المحدد جمّعَ «الطرهوني» أصحابه وقصد المحطة. الشوارع خالية. وعواء كلاب يأتي من بعيد، من وراء دوَاوير البدو الساكنين على تُخوم البلدة الحديثة يملأ المكان بشرّ مستطير. فمشى الرجال بحذر خوفًا من أن تُباغتهم حجارة رجال «تيزي وُزُّو». ولكن خاب ظنّهم فقد ظلّ الهدوء سيد الموقف إلى أن وصلوا أمام باب الماخور. اقترب «الطرهوني» من الباب ورفع مطرقة صغيرة من النحاس لها شكل يد مضمومة. اليد معلّقة على صدر الباب فوق يد حديدية مبسوطة. دقّها الرجل ثلاث دقّات كعادته أيام كان سيد هذه الدار. لكن لم يجبه أحد رغم اللغط المكتوم في الداخل. فعاد يدقّ بعنف أكبر اليد المقبوضة على اليد المبسوطة. ويهدأ قليلاً ثم يعود إلى الدقّ من جديد إلى أن انفرج الباب. من خلال الفتحة الصغيرة أطلت «حسيبة». لم يصدّق «الطرهوني» عينيه. ولم تعرفه المرأة من النظرة الأولى. فالظلام دامس خارج البيت. ظل الرجل والمرأة صامتين إلى أن نهنه «الطرهوني».

- هأنذا أظفر بك أخيرًا أيتها الحبيبة.

ارتمت «حسيبة» في حضنه وهي غير مصدقة أنها في حضرة

مجنونها وظلت ترتجف إلى أن هتف صوت أجشّ:

- من بالباب يا «حسيبة»؟

ولم يحصل على جواب فقام واقفًا. جَذَبَ المرأة من حضن الرجل وهو يصرخ:

- هكذا إذن أيتها الفاجرة تتركين مجلسنا وترتمين في أحضان هذا المُخنث!

وضرب برجله ما بين فخذي «الطّرهوني». جاءت الضربة مباغتة فلم يستطع تفاديها. ولم يسمع أصدقاؤه سوى «آه» مجروحة ثم تكوّم على الأرض. وجرّ الدبّ «حسيبة» إلى الداخل وأغلق الباب وراءه بعنف.

أبعد الرجال «الطّرهوني» من أمام الماخور. ثم انهالوا على الحوش رجمًا بالحجارة. قذفوا الدّار بكل ما قدروا عليه من حصى وعصي. وأخرج أحدهم مسدسًا وأطلق في الهواء عدة طلقات. ثم بدأوا يدكون الباب بخشبة أحضرها أحدهم من حضيرة بناء قريبة من المكان. فعلا صراخ النسوة وعويلهنّ واختلط بسباب الرجال الهاجمين على الحوش وبزعيقهم وبذاءاتهم. وحضر رجال الجندرمة. أخطرهم ناظر المحطة بالحادث فجاءوا. أخرجوا بنادقهم وصوّبوها نحو وجوه الرجال. ورطنوا بلغتهم الفرنسية المخلوطة بكلمات عربية نابية ثم بدأوا في إطلاق الرصاص في الهواء فانسحب الرجال في كل الاتجاهات. وذابوا داخل الأزقّة الملتوية.

وعاد «الطرابلسيون» إلى السوق يحرّضون رجالهم على قتال أجلاف جبال الجزائر ويذكّرونهم بمحاباة مهندسي الشركة وإطاراتها لهؤلاء الرجال. ويدسون في حديثهم حكايات كثيرة وقعت لهم داخل أنفاق المنجم مع هؤلاء المجرمين الذين يدفعون بالطّرابلسيّة إلى الأماكن الخطرة. ويكلفون العمّال حديثي العهد بالخدمة بتفجير المفرقعات دون دربة أو دراية بمخاطرها. فأهلكوا خلقًا كثيرًا. وتمتّعوا بتقدير مدير

الشّركة فكلّفهم بقيادة الحضائر. وزاد في رواتبهم. وأجزل لهم العطايا على حساب الرّجال الّذين أكلهم الرّدم داخل الأنفاق. وبيّت الطّرابلسيّة لأمر خطير قالوا:

- الليلة سنهاجم حي «القبائل» ونطردهم من هذه الدّيار كما يُطرد الموبوءون، ونَسْبي نساءهم لنجعل منهنّ بغايا لعموم عملة شركة الفسفاط، عربًا وأعاجم.

وأقسموا على ذلك بأغلظ الأيمان. ثمّ تفرّقوا يجمعون الأسلحة ويجيّشون الرّجال ويمنعون عملةورديّة الليل من الالتحاق بالعمل.

وبلغ رجال «القبائل» الخبر فتمتْرسوا داخل حيّهم. وحوّلوا منازلهم إلى قلاع حربية، وجمّعوا أكداس الحجارة فوق السّطوح. وأقاموا الحواجز على الأزقّة. وباتوا يترقّبون الغزو وهم يكزّون على أسنانهم ويعضّون على الحديد.

وتنادى «الطّرابلسيّة» من كلّ مكان. فجاء «الجعافرة» و«ورْفلّة» و«أولاد الطّرهوني» و«أبو عجيلة» و«التّاجوري» و«الغرياني» وعسكروا قريبًا من الحي. فأولم لهم التّجار. ذبحوا الخرفان والنّعاج. وأحضروا من مقتصديّة الشركة قوارير الخمر. فأكلوا وشربوا وعربدوا. وجيء بالطّبل والزّكرة فرقصوا وتهتّكوا إلى أن هبط الظّلام.

فقال قائلهم:

- لن نهجم السّاعة، فرجال «القبائل» لا محالة على أهْبة الاستعداد. سنفوّت عليهم هذه الفرصة. ولن نترك لهم الأمل في النّيل منّا.

ونام الجميع وكأنّ شيئًا لم يكن. ثم عادوا في الغد إلى صنيع الأمس. هجروا العمل في المنجم. وأحضروا الشّراب. ونحروا الذّبائح. وشوَوْا اللّحم. وسكروا. وغنّوا ورقصوا. ودامت الوليمة ثلاثة أيّام متتالية.

وبدأ التّراخي يدبّ في عروق المدافعين عن حيّ «القبائل» قالوا:

- هؤلاء الطّرابلسيّة أجْبن من أن يهاجموا حيّنا. الليلة سنعود إلى

العمل وسنترك حامية من الشباب تدافع عن المنافذ. واستعدّوا لورديّة الليّل.

ولم يسكر «الطّرابلسيّة» ذلك المساء. تجمّعوا في دور الأقارب يحرّضون بعضهم بعضًا على الأخذ بالثّأر. والانتقام للدّم المسفوك في كهوف مناجم الفسفاط. قالوا إن أرواح القتلى الذين تسبّبب «حمّو القبائلي» في سحقهم تحت الصخور تطير كلّ ليلة فوق منازل الحي. تلبس ريش طيور البوم وتظلّ تنعب فوق الرّؤوس. تنادي بثأرها. وتلعن جبننا وتخاذلنا. الليلة سنجعل طيور البوم ترتوي من دم رجال «القبائل».

ومع مغيب شمس اليوم، بدأت طلائع المهاجمين تحوم حول حيّ الأعداء. زرعوا أعينهم في كلّ مكان. وتأكدوا من أنّ الرّجال قرّروا العمل في وردية الليل. فعادوا يخبرون أصحابهم بذلك مستبشرين بأن ساعة الانتقام قد أزفت.

في الهزيع الأخير من ليلة الأحد 5 ماي 1907 هاجم «الطرابلسية» حيّ «القبائل» من الجهات الأربع. كان الشباب المكلفين بالدفاع عن الحي قد ناموا. وكان غالبية الرجال يعملون في النفق. اندفعت جموع المهاجمين بعنف داخل الحي. وسحقوا الجواجز وهشموا الأبواب. وسعوا في الأرض فسادًا وأفاق الشباب من ارتباكهم فرفعوا المشاعل على خطّ طوله أكثر من كيلومترين. من آخر بناية في الحي إلى باب النفق. إنها الإشارة المتفق عليها بين المدافعين عن الحي والرجال الذين ذهبوا للعمل في وردية الليل. وعلت أصوات النذير مخلوطة بالظلام والفجيعة:

- أكل الذئب النعجات، إلى فئوسكم يا رجال «القبائل»!

وفي رمشة عين، غادر أكثر من ألف رجل باب النفق والتحقوا بساحة المعركة مسلّحين بالهراوات والبنادق والديناميت والمسدسات. كانوا كلما وصلوا مشعلاً أطفأوه ليعلم المدافعون عن الحي مكان وجودهم إلى أن وصلوا. فحاصروا الحي من جميع الجهات. وارتقت النساء السطوح.

وانهالت الحجارة على رؤوس «الطرابلسية» وأكل من لحمهم رصاص البنادق والمسدسات فلم يجدوا حلاً لورطتهم وقد أصبحوا بين نارين سوى إشعال فتيل اللهب في جدران البيوت الخشبية. فاختلط لحم الأطفال المشوي بالزيت والدقيق والسكر والشاي. وسال الدم يلطخ الجدران بلون الأقحوان.

كان رجال «القبائل» كلما أمسكوا طرابلسيًا رموه في اللهب المشتعل ومنعوه من الخروج منه وهم يرجمونه بالحجارة والعصيّ وقطع الخشب. وتفنن الطرابلسيون في إيذاء النساء وفي هتك أعراضهن. ووصل رجال الجندرمة، أحاطوا بالحي وظلوا ينظرون دون أن يطلقوا رصاصة تخويف واحدة.

وتمكن جماعة من « ميلود الطّرهوني». حاصروه في زنقة فحاول القفز على حائط فلم يفلح. وظل يقاوم ويحاول الإفلات من الأيدي الكثيرة إلى أن هده الإعياء فاستسلم لهم. قادوه إلى ساحة الحي. وحفروا له حفرة ثم دفعوه فيها. تركوا رأسه وصدره عاريين ودفنوا بقية الجسد. ثم جمعوا أطفال الحي وقالوا لهم: «ارجموا هذا الفاسق» وانهالت الحجارة على الرأس والصدر فشدخت الرأس وأحدثت رضوضًا رهيبة في الصدر. ولم يتأوّه «الطّرهوني» ولم يفه بكلمة استرحام واحدة إلى أن سال مخه على ثيابه مخلوطًا بالدم والألم المكتوم.

وأحدث الطرابلسيون فجوة في الحصار ففرّوا من خلالها تاركين وراءهم القتلى والجرحى وحيًا اشتعلت النيران في كل منازله.

وسيطر رجال «القبائل» مرّة أخرى على الحي فجمعوا قتلى وجرحى «الطرابلسية» في الساحة. كدسوا الجميع كومة واحدة وابتدأت عملية الفرز. أبعدوا الأحياء عن الأموات وشحذوا السكاكين إلى أن صارت تبرق ثم بدأوا في جدع أنوف الأسرى وفي قصّ آذانهم. ومروا إلى الأموات ففعلوا بهم ما فعلوه بالأحياء الجرحى. وطلبوا خيطًا ومِخْيَطًا

فشكلوا الآذان والأنوف المقطوعة عقداً زينوا به عنق حمار. وجاء الشباب فساقوا الحمار حتى مشارف حي «الطرابلسية» ثم عادوا إلى حيهم. فرصّوا الأموات مع الجرحى. وأحضروا أصابع كثيرة من «الديناميت»، وضعوها في جيوب الأحياء وفي أفواه الموتي وداخل بطونهم، وتجرأ أحدهم، فدسّ إصبع ديناميت في دُبر «ميلود الطرهوني». وربطوا هذه المتفجرات بخيط أوصلوه إلى صاعق. وأشعلوا النيران بالخيط وابتعدوا.. فانفجر كدس اللحم. وصارت الجثث مشكلة صورة فقّاعة كبيرة جذعها في الأرض ورأسها في قلب السماء. ثم تفتتت وتناثرت فوق مساحة واسعة على شكل هباءات من اللحم والدم.

ووصل الحمار إلى حي «الطرابلسية». كان الجميع في هرج ومرج فلم يلتفت أحد إلى عقد الآذان والأنوف الذي يزين الحمار إلى أن تحلّق حوله جمع من الصبية وهم ينظرون إلى هذا العقد العجيب. نزع أصغرهم العقد وراح يعدّ الأنوف والآذان. ويغلط فيعود من جديد إلى العد: «واحد... اثنان... ثلاثة». ويغلط فيعود إلى العد ويعود إلى الغلط. إلى أن اقتربت منهم ففرّوا في كل الاتجاهات تاركين العقد على الأرض. تأملت هذه الأعضاء الآدمية في حزن ورهبة: أنوف مختلفة الألوان والأشكال. وآذان صغيرة كآذان الأطفال. وأخرى كبيرة ومفلطحة. كلها أذبلها الموت. كنت قريبًا من المسجد الجامع فقلت: «لماذا لا أحمل هذا العقد إلى الشيخ الضرير؟» ودفعت الباب. سمعت الرجل يقرأ من قصار السور. فسلّمت عليه لكنّه تجاهلني. ظلّ يُرَتِّلُ الآيات البينات إلى أن انتصف النهار وأنا واقف في مكاني.

وسحرني صوته وسلبني عقلي فانهمكت في القراءة معه في سرّي إلى أن همّ بالقيام يريد وضوء الظهر، فرميت العقد في حجره. مرّر الرجل أصابعه على قطع اللحم وقال:

- فعلها ابن بهيّة؟

فقلت: «بلى يا مولانا!».

فعاد يجلس. وبدأ في عدّ الآذان والأنوف. عدّها أكثر من مرة وكان وجهه يزداد شحوبًا كلما أنهى العدّ، ثم همس:

- ثلاثون أنفًا وستون أذنًا!

وأضاف بعد مدة:

- لكنني لا أجد أُذنًا لابن بهية. أعرفها مثقوبة، ظلّ يتأرجح في شحمتها قُرْط من الذهب إلى أن بلغ! فهل فرّ من ساحة المعركة بعد أن أشعل نارها؟

قلت: «لا يا مولانا أكلت الطيور لحمه حين طار فتافيت في أرجاء السماوات السبعة!».

قال الشيخ وظل ابتسامة باهتة يرتسم على شفتيه:

- لقد أنستني الأيام الطويلة أن عرّافة قالت له: «لن تجد لك قبرًا حين تموتُ يا ملعون!».

كانت القافلة قد توسطت الصحراء حين خرجت لنا تلك العرّافة من حيث لا ندري. تفرست في وجوهنا واحدًا واحدًا ثم طلبت يده. دفرها «الطرهوني» ولكنها ألحّت في الطلب.

فقال لها: «اغربي عني يا أخت الشيطان!».

ورماها بقطعة من الفضة.

التقطت المرأة القطعة ودستها في جيبها وعادت تطلب يده. فمدها لها. أفردتها أمامها مدّة وبدأت تقرأ في خطوطها فارتاعت. اصفرّ وجهها. وزاغت عيناها. وبدأت ترتجف. ثم فجأة التقطت قفتها وعصاها وفرّت.

جرتْ كمن تجري وراءه كلاب الجحيم.

ألجمت المفاجأة «ميلود الطرهوني» في الأول فتركها تبتعد ثم جرى وراءها جَرْيَ «السّلوقيّ» وراء أرنب شارد إلى أن أمسك بها بعد لأي ومشقة.

كانت المرأة تضطرب وتهذي:

- هاك فضتك يا رجل، واتركني فلن أقول لك ما يخبئ لك الغيب.

لكنه طمأنها:

- لا تخافي يا مباركة! قولي ما رأيت وأنت آمنة! فلن أمسّك بسوء مهما قلت!

وعادت تُلْحفُ في طلب الأمان. فأمَّنها عن مالها وعِرْضِها وروحها. فقالت له: «ستكون موتتك شنيعة يا أخي. ولن تجد لجثتك قبرًا في هذه الأرض الوسيعة، وسيأكل لحمك طيور السماء وهوام الأرض!».

وعوض أن يصيب الفزع «ميلود الطرهوني» بدأ في الضحك والقهقهة حتى سالت الدموع من عينيه، والمرأة تنظر إليه مدهوشة إلى أن هدأ. فذهبت وهي تلتفت وراءها غير مصدّقة أنها نجت من الموت. تركها تبتعد خطوات ثم ناداها:

وأفرغ في يدها كل ما في جيبه من نقود فضية ونحاسية. وعاد إلى الضحك والقهقهة.

بعد مدة قال الشيخ:

- لا تذهب! ترقّبني حتى أعود من الميضأة.

فجلست قريبًا من المنبر البسيط المصنوع من خشب النخل وأنا محاصر بصور أصحاب هذه الآذان والأنوف، إلى أن عاد الضرير.

استقبل القبلة وطلب مني أن أضع العقد بين يديه. ففرق بين الآذان والأنوف وبسط أمامه قطعًا من القماش الأبيض النظيف. صار يضع أنفًا على الكَفَن ويختار له بدقة أذنين من الآذان المعروضة عليه ويقول:

- هذا صالح بن بوزيد البوسيفي!

ويقيم عليه صلاة الجنازة. يكبر عاليًا. ويقرأ القرآن. ويمر إلى أنف أخري. يختار لها من الكدس أذنين مرددًا:

- وهذا عبدالله بن سالم بوعجيلة!

ويقيم على روحه الصلاة.

ثم يمرّ إلى روح أخرى.

كنت في كل مرة، أحفر مقدار شبر في ساحة المسجد ثم أضع هذه القطع الآدمية في الكفن الذي أعده الشيخ وأهمّ بدفنها. فيشير الرجل برأسه أن ترقّب قليلاً. إلى أن هبط الليل. فقام ودعاني إلى الوقوف وراءه. قرأ سورة يس سبع مرّات فتحوّلت الحفر الصغيرة إلى مقابر. ونظرت فإذا داخل كل قبر جسمًا آدميًا كامل الصفات. وعاد إلى سورة يس يقرأ من آياتها فامتلأ المسجد بأصوات تردّد القرآن. ورأيت رجالاً يشعّ النور من وجوههم يهيلون التراب على القبور ثم يمسحون الأرض بأيديهم فتعود إلى حالتها الأولى.

ودعاني الشيخ إلى صلاة الجنازة فصليت معه على القتلى صلاة جماعية. وغادرت المكان.

رأيت طيورًا تحوم فوق رأسي. طيور سوداء وبيضاء شبيهة بطائر الخطاف. رأيتها تحطّ على الأرض التي سوتها الأيدي النورانية. وحين التفتّ مرة أخرى وأنا أقترب من الباب، اختفت الطيور. فكأن الأرض ابتلعتها.

في الخارج جمّع «الطرابلسيون» ما خفّ وزنه وغلا ثمنه. ويمّموا وجه المحطة فامتلأت العربات بجموعهم الغفيرة. وزمجرت القاطرات ونفثت دخانها الأسود. ثم تحركت عجلاتها وهي تئز وتعوي.

وابتلعها سراب شهر «ماي» وقد وصل مبكرًا هذه السنة. بعد صلاة العشاء وصلت طلائع رجال «القبائل» إلى حي «الطرابلسية». اقتربوا من المكان بخطى الذئاب وهم يرفعون الفؤوس والهراوات. ولكن هدوءًا غريبًا كان يعم الحي فاقتحموه من الجهة الغربية القريبة من السوق. كانت الدكاكين موصدة وكانت كلاب سائبة تمرح قرب حانوت الجزار وتلعق بقايا عظام جمل نُحر البارحة. شجّع الهدوء المهاجمين فاندفعوا داخل

الحيّ. وجدوا أبواب المنازل مفتوحة والبيوت على حالها. الفُرشُ في بيوت النوم تترقب النائمين. والنار تشتعل تحت القدور. ورائحة الشاي المحروق تفوح من «البراريد» التي تفحّمت.

كان الحي قفرًا كأنْ لم يكن منذ حين يعج بالحياة.

فجلس الرجال داخله إلى أن وصلوا قرب المسجد الجامع فسمعوا صوت المؤذّن يجرح الهدوء. يعلو حينًا وينخفض حينًا آخر. فوقفوا وراء الباب صفًا واحدًا مدة ثم اندفعوا فجأة داخل الصحن. ولكن صوت المقرئ زاد فارتفع وعلا أصوات جلبتهم وضجيجهم.

قال قائلهم:

- ماذا سنفعل بهذا الطرابلسي؟

فردّ آخر:

- سأضع حد السكين على عنقه وأحزّه!

واعترض ثالث:

- هذا لن يكون في المسجد! نحن على كل حال مسلمون، ولن نقتل هذا الرجل بجريرة غيره!

فقال حكيمهم:

- عندي فكرة، سنطرُدهُ من المدينة وكفى الله المؤمنين القتال.

وأعجبت الفكرة الجميع. فأخرجوا الرجل من المسجد. أركبوه حمارًا وقادوا الحمار خارج البلدة ومشوا حتى بلغوا سكة الحديد التي تتجه شرقًا. تركوا الحمار قريبًا من السكة وعادوا دون أن يلتفتوا إلى الوراء.

وبدأت كلاب البدو الذين نصبوا خيامهم قريبًا من خزانات ماء الشركة في النباح.

# الفصل الخامس

## حكاية «الرومي»
## الذي عشق مسلمة

# الباب الثاني عشر

***في ذكر الحادثة التي ذكّرت «عزيز السلطاني» بابنة عمّه التي نسيها في «عتيقة». وأخبار عن الكلاب التي أكلت جثة ابن رئيس المحطة. وطُرف من مناقب الفرنسي «لويس» الرئيس الجديد لمحطة القطار والمجريات التي قادته إلى قلب «عائشة» البدوية.***

## (1)

هممت بمغادرة دكان العطار الطرابلسي حين اقتربت مني عجوز سوداء. مدت لي يدها تطلب صدقة فلم ألتفت إليها وواصلت طريقي. مشيت بضع خطوات ثم التفتّ إلى الوراء.

رأيت العجوز واقفة تحت شمس الظهيرة تمدّ يدها للفراغ. كانت شاحبة ومخذولة فاتجهت إلى ظل ممدود قريبًا من المقهى وجلست تمسح عرقها. تحركت في رأسي ملايين الصور دفعة واحدة حتى أصابني دوار خفيف. وتوقفت صورة كبيرة بالألوان الطبيعية أمام ناظري. هذه المرأة السوداء أعرفها. نعم! أعرفها بالتأكيد!

وبدأت أراجع ما خبأته الذاكرة.

رأيتُ «الدّار الكبيرة» تعجّ بالحياة. وسَمِعْتُ صهيل امرأة يعلو فوق كل الأصوات. أيامها كانت شابة وكنت معجبًا بنطقها للغة العربية. صوتها أغَنُّ ينطق الحروف بلكنة بلاد السودان فتزدهي الكلمات بين شفتيها وترق وتزهر وتملأ المكان عطرًا وشذى. كنت أعشق عوالمها خاصة إذا ركبتها سَوْرَة غضب. فتتكلم بيديها ورأسها. وتحركُ بدنها في كل

الاتجاهات. ويختلط عندها الكلام العربي بلغة الأعاجم، والشّباب بالرقص المجنون في غابات إفريقيا فيشدني إليها هذا الغضب شدًا وثيقًا. وتدعوني فأستجيب. أُقضّي الأيام الطويلة في بيتها. وأنام في فراشها لا يزعجني سوى حضور الأعمام عندها بين الفينة والأخرى. يدخلون ويخرجون سراعًا فتتعرى لهم أمامي بدون خجل. يلتمع في ألق الصباح بدنها الآبنوسي ويرتجّ نهداها كفرخي حمام يهمّان بالطيران. ويركبونها فيَفوح في أرجاء الغرفة عطر النّدّ والبخور ويخرجون فأسرع وأمرح في ملكوت الرب مسبِّحًا بحمدها وشكرها.

وفاح شذى الزهور من جديد فاقتربت من المرأة. قطعت عمرًا كاملاً في بضع خطى. فصدمني عماها. عيناها تتحركان في محجريهما في وجل. ورأسها لا يكفّ عن الدوران.

كلمتها فلم تجاوبني. كنتُ كمن يحادث تمثالاً.

وكانت في تلك الأيام البعيدة شبيهة بتمثال من الآبنوس. أضجر حضورها حرائر الدار فدسسن لها من حاول قتلها ولكنها نجت من كيدهن حتى ظن الجميع أنها محمية بطلاسم جلبتها معها من بلاد الزنوج.

لمستها في يدها فرمشت أجفانها. ورأيت ابتسامة على شفتيها فعدت إلى محادثتها لكنها ظلت ساهمة تتحرك كالمخبولة وتميل برأسها يمنة ويسرة.

وبدأت في هزها. فخافت. وحاولت الإفلات مني. فتشبّثت بها أريد أن أسألها عن الرجال السّود الذين غادروا القرية بعد الفاجعة التي ألمّت بالعائلة.

ثم أشفقت عليها حين رأيتها تضطرب بين يدي اضطراب عصفور في القفص. وهممتُ بمغادرة المكان. ثمّ عدت اتريّث بعد أن رأيت رجلاً يقترب. كان واقفًا منذ مدّة، قريبًا مني. شدَّه حديثي مع المرأة فقال:

- أنت تحادث بكماء صمّاء يا رجل!

وأضاف حين لاحظ استغرابي:

- هذه العجوز فقدت السمع والنطق في أثناء فاجعة انهيار «جبل الوصيف» عام ألف وتسعمائة بعد أن مات كل رجال قبيلتها.

وسألته:

- هل عرفت هؤلاء الرجال قبل الفاجعة؟

فقال:

- جاؤوا مع القافلة التي عادت من «قابس» بعد أن أوصلت غرائر الفُسفاط إلى الميناء.

وقال:

- لقد وجد رجال القافلة هذا القبيل الأسود من الرجال والنساء وبعض الأطفال يهيمون في بحر الرمال المتحركة وهم قاب قوسين أو أدنى من الهلاك. فحمَلوهم على الجمال. وغنّى لهم الحادي. فامتلأت بطونهم بالمنّ والسلوى. وعادت العافية إلى الوجوه السّمراء والسّواعد المفتولة.

ولمّا دعا داعي «الشركة»: «حيّ على خير العمل!» لبّوا النداء. اقتحموا مجاهل الأنفاق. ودفعوا عربات التراب بأكتافهم حين كلّت البغال. وقاتلوا أشباح الموتى الذين ماتوا في الأيام الأولى تحت الردم حتى أجلوهم عن المكان. ولكنهم هلكوا بدورهم عن آخرهم خلال الانهيار العظيم. ولم يبق منهم سوى النساء والأطفال وهذه العجوز التي ترى.

وسألته عن النساء الأخريات فقال إنهن تفرقن مع الريح. والباقيات منهنّ صرن خادمات في منازل مهندسي الشركة.

وعدت أسأل عن الأطفال فهمهم:

- صاروا خدمًا للنساء الفرنسيات. يحملون لهنّ القفاف حين يذهبْن

للتبضّع من السوق. ويدفعون عربات الرّضّع. ويلاعبون الأطفال الصغار والكلاب وقت اشتغال النساء في الطبخ. أو خلال نوم القيلولة.

وفتشت عن العجوز فلم أجد لها أثرًا. ذابت في سراب الهاجرة.

ونبتت فكرة في رأسي: لابدّ أن أعود إلى القرية لأصطحب معي «فاطمة» تلبسني وألْبسُها في هذه الدّيار. لقد ذكّرتني الزنجية بالوعْد الذي قطعته على نفسي وأنا أحاول وضع رجلي داخل ركاب الفرس.

**(2)**

بعد أيام عُدْت إلى «عتيقة» أبحث عن «فاطمة». كنت أعرف أن عيون «الباشا» تبحث عني في كل مكان، فلم أجازف بدخول القرية نهارًا. ترقبت حتى هبط الليل وطرقت باب أمي. وجدت سريرها باردًا. ولم أشم رائحة عطرها في المكان فعرفت أن مكروهًا ألمّ بها. فاشتد وجيب قلبي وخامرتني ظنون شتى. أعرف أن زوجها شرسٌ وأعرف أنه لن يتورع عن الفتك بها إذا قدّر أنّ مهمتها انتهت. ولكن من أين لي أن أعرف مصيرها؟ فاشتد وجلي وذهبت إلى قصر «الأجداد». دخلت من خلال السرداب المفضي إلى الإسطبل وذهبت رأسًا إلى بيت «فاطمة». كانت رائحتها تجذبني نحو بابها بخيوط من عبير. بقيت واقفًا أمام الباب مدة حتى هدأت الحركة في الداخل ثم انفتحت في وجهي أبوابها. رأيت «فاطمة» في كامل زينتها، معطرة، يقطر الماء من شعرها، تنظر إلى وجهي وتبتسم. ثم قالت: «عرفت الآن طريقي يا ابن العم! لقد أعلمني «هاتفٌ» قبل ثلاثة أيّام أنّك ذكرتني. مرّ «الهاتف» فوق قصرنا. حطّ فوق السطوح ونادى ثلاثًا يا «فاطمة» فخرجت إلى صحن الدّار. سمعت الصّوت صافيًا كالدقّ على النحاس ولم أر الشخص. وعاد «الهاتف» إلى النداء مرة أخرى: لا تتعبي نفسك في البحث عني. ولكن هاتي البشارة.

فقلتُ له:

- أبشرْ يا «رئي»(*).

قال:

- غدًا يزورك «عزيز»! جهزي نفسك لسفر طويل!

وذاب الصوت في السماء الصافية. فتطهّرت من رجس الشيطان. ولبست لك هذا الثوب الأبيض. وأشرعتُ لك الأبواب السرية.

ضممتُ «فاطمة» إلى صدري وحملتُ حقيبتها وهممتُ بالخروج لكنّها ذكّرتني ببشارة «الرّئي».

قالت: «دونك وهذا التيس الأسود. اذبحه ولطّخ الأبواب بدمه!».

فبسملت وذكرت اسم الله على الذبيحة.

وسال الدم بين الأفخاذ فأوفيتُ بالبشارة.

## (3)

وزمجرت محركات القاطرات من جديد. وأزّت العجلات تحت الأثقال. وعاد العمال إلى الأنفاق. وارتفع صياح الباعة في الأسواق، ورغاء الجمال أمام دكاكين القصاصين. وعادت نداءات «البرّاح» تدعو البدو المعسكرين قريبًا من المنجم للالتحاق بإدارة الشركة لجني المال مرة كل نصف شهر عوض التسكع وراء الشّياه الهزيلة. فاكتريت منزلاً في قرية «فيليب توماس» به غرفتان ومطبخ وبيت خلاء وشبابيك تطلّ على الشارع ودفعت مقابل الكراء نصف مرتبي الشهري. قلت: «حتى لا أهين «فاطمة» بالسكن الجماعي مع الأغراب». وقد شجعني على كراء هذا المنزل قربه من حنفية الماء العمومية، فالماء عزيز في هذه الديار.

(*) الرّئي: هو جنس من الجنّ له صوت مسموع وجسم غير مرئي يحيط صاحبه بالأسرار ويطلعه على الغيب. (ذكره أبو علي القالي في كتاب الأمالي 132/1 - 134).
كما تراجع قصص عن «الرّئي» في تفسير ابن كثير، 6/(301/300).

و«فاطمة» لن تقدر على عراك البدويات ومصاولة الرجال حتى تملأ سطلاً أو قربة.

وأهمني كثيرًا هذا الموضوع فصرت أبحث له عن حلّ في السرّ والعلن، إلى أن اهتديت إلى قلب «لويس» حارس الخزانات.

كانت الشركة تجلب الماء من قفصة عن طريق القطار في صهاريج كبيرة أوكلت بحراستها الفرنسي «لويس» وشددت في أن يعطي منه نصيبًا للأهالي لا يزيد على عُشر الكمية، وتمتعت عائلات المهندسين والعمال الأوربيين بالباقي. فأقاموا المسابح في دورهم وتفننوا في زراعة الأشجار وفي تنسيق الأزهار وتركوا العرب يتقاتلون على قطرة ماء. قدمت لخازن الماء هدايا صغيرة: عراجين تمر وسلال تين مجلوبة من بلاد الجريد. فوهبني مقابل هذه الهدايا مرغوبي من الماء.

وتطورت علاقتي بهذا الرجل بسرعة عجيبة. طلب مني أن أعلّمه اللغة العربية. فتعلمها بيُسر. وصار يلبس الجبّة الواسعة ويأكل الكسكسي بيديه. يطلب مني أن أغني له أغاني البدو الحزينة. فينصت لغنائي حتى تبتل عيناه بالدموع ويذبل لونه. ثم راح يسألني عن الإسلام، وعن عادات المسلمين، وتقاليدهم مستمعًا لأجوبتي بانتباه كبير.

كان «لويس» يختلف كثيرًا عن بقية الفرنسيين الذين لم يحاولوا إلا في القليل النادر الاختلاط بالعرب، فظلوا يعيشون في عالمهم الصغير، في حيّهم الراقي. يتزاورون فيما بينهم. ويحيون أعيادهم في قاعة الأفراح الفسيحة. ويلعبون كرة القدم، وكرة المضرب والكرة الحديدية في الأماسي، تحت الأشجار الظليلة، أمام أنظار الحُراس المغاربة.

وعلى قدر حُبّ «لويس» للعرب. كانت كراهية رئيس المحطة لهم كبيرة. اشتط الرجل في منعهم من الاقتراب من خزانات الماء. وأطلق كلبه الضخم وراء الصبيان والنساء. فروع الكبير والصغير. وجعل ساحة

المحطة مسرحًا لتسلية رفاقه عملة سكّة الحديد. يترك للنساء الوقت حتى يقترين من الخزان وينهمكن في فتح الحنفيات فيسيل الماء باردًا على أفخاذهن. ثم يُطلق وراءهنّ الكلب فيعدوُ خفيفًا خلف الملاءات ذات الألوان الفاقعة. وتهربُ النساء في كل الاتجاهات وعويلهن يملأ الفضاء. فيضحك رئيس المحطة حتى يستلقي على قفاه. ثم ينادي كلبه. ويظل يلاعبه. ويربتُ عليه إلى أن يهدأ. فيأمر عاملاً بغسله تحت الحنفية التي منع قبل قليل ماءها عن البدويّة.

وظلّ رئيس المحطة على هذه الحال إلى أن هجم العرب ذات ليلة على جبانة «النصارى» فهدموا سورها، وحفروا قبورها وبعثروا صُلبانها. وأخرجوا ابن رئيس المحطة الذي مات منذ أيام من قبره. وأطعموا لحمه لكلب جائع. وملأوا القبر بالخراء وبالكلام النابي.

وهجّ رئيس المحطة. فعوّضه «لويس» الذي صار يفتح الحنفيات لنساء البدو في أوقات معلومة تنام فيها عين الرقيب. فيملأن القرب والجرار. وتشربُ الحمير والمعيز والنعاج. وتبتل ثياب الأطفال وجلود الكلاب. وتسيل المياه في الشارع القريب من المحطة.

كان «لويس» لا يمنع أحدًا من الاقتراب من الخزانات إلى أن اكتشف المهندس الأول في الشركة الأمر. فهدد بالتبليغ عنه إلى السلط الجهويّة. وكلما زاد المهندس في التهديد زاد «لويس» في تساهله مع البدويات اللاتي كنّ يضحكن بخفر كلّما مررن من تحت شباكي. وحيرني هذا الأمر إلى أن اكتشفت السرّ ذات قائلة قائظة. خرجتُ من البيت لجلب سطلين من الماء تبلّ بهما فاطمة جلدها. فاطمة التي اشتاقت كثيرًا لخرير وديان «الجريد» وطيب واحتها، فجلبَ انتباهي وقوف أتان أمام باب دار رئيس المحطة. اقتربتُ من الباب الموارب ودخلتُ بدون استئذان. رأيت «عائشة» البدوية واقفة وراء زجاج نافذة. كانت تقبل الزجاج بشبق.

وزدتُ اقـتـرابًا فـرأيت «لويس» وراء الزجـاج من الجـهـة الأخـرى يقـبل البـدويّة من وراء بلّور النافـذة. جعل الرجل والمرأة البلّور حـاجـزًا بينهـمـا وانهمكا في قبلة محمومة أنستهما الدنيا وما فيها.

حين أفـاقت «عـائشـة» من القُبلة وجـدتني وراءها، فـاصـفـر وجـهـهـا وشهقت:

- يا ويلي! سيقتلني أهلي!

وفرّت باتجاه الأتان. وضعت القلال الأربعة في الزنبيل.

ووضعتْ القربة على ظهرها. وضربت البهيمة بعصاها. وذابت وراء منازل حيّ المحطة.

بعد مـدة خرج «لويس» من داره باسمًا فتلقيته مُغضبًا. قلتُ له إن ما أتاه أمرًا جللاً. وحذّرته من أهلها ثم هدّدته:

- سيقتلونك لو اكتشفوا سرّ هذه الخلوة.

فقال إنه يحبها، وإنه يريد الزواج منها.

ألجمتني المفاجأة، ولم أعرف بماذا أردُّ عليه. لكنني تمالكت نفسي في الأخير وطلبتُ منه ألا يعود إلى مثل هذا الحديث لأنّ دين الإسلام يمنع «الكافر» من وطء المسلمة.

فاربدّ وجهه وتمتم:

- يعني أتركُ ديني حتى أتزوج «عائشة»!

فقلتُ: «نعم يا صاحبي! وإلاّ فلن تشم صخابها بعد اليوم».

فردّ على سخريتي مُحتجًا:

- ولكنني أعـرفُ فرنسيات متزوجات من تونسيين فلِمَ أُحـرم من «عائشة»؟

فعدتُ أؤكّد له أن ديننا الحنيف يسمح لرجالنا بنكاح الكتابيات ويمنع أن يطأ نساءَنا غير المسلمين!

رأيتُ على وجهه علامات استغراب تمتزج بالبلاهة والتحدي والسخرية من حديثي. وظلّ مدّة يلحسُ شفتيه وهو يردد:

- لكن «عائشة» حلوة! ولن أفرّط فيها أبدًا!

وذهبتُ أبتردُ تحت الحنفيّة وأملأ الماء لفاطمة. ونسيتُ حكاية «الروميّ» الذي يريدُ الزواج من البدوية. لكن الفرنسي ما نسي غزالته فظلّ يلتقي بها خِلْسَةً مرةً في بيته ومرات وراء كثبان الرمال. وما عاد العاشقان يكتفيان بالقبل من وراء الزجاج بل صار الرجل يلحس من شهد حبيبته. ويأكل من تفاح صدرها. ويعوم في بحرها...

إلى أن اكتشف أهلها الأمر.

# الباب الثالث عشر

*في ذكر تعلق رجال البدو بالشيخ الطرابلسي المطرود من قرية «فيليب توماس».*
*كما فيه تفاصيل عن دخول الفرنسي «لويس» إلى دين الله الحنيف. وغرائب وأعاجيب ومُلَح وطرائف تتعلق بـ «سلاطين الإنس والجان الذين نجدوا جيش فرنسا فانتصرت على الألمان في الحرب الكبرى الأولى.*

## (1)

اشتد نباح الكلاب وهريرها فخرج رجال «الدوار» يزجرونها ويستطلعون الأمر. رأوا حمارًا يتقدم بخطى وجلة نحوهم. ترقبوا حتى سكتَ عواء آخر كلب واقتربوا منه.

كان «الشّيخ المُقرئ» قد استعاد بعضًا من رباطة جأشه، فسلّم على الرجال الذين سمعهم يُهمهمون وهم يقتربون منه. ردّ عليه الرجال السلام بعد أن عرفوه من خلال صوته فخفّوا ينزلونه من على ظهر الحمار، وتداعوا فيما بينهم. فخفّت النساء بالحُصر والفرش والزرابي. وانتصبتْ في رمشة عين خيمة للضيف المبجل الذي يحمل في صدره كلام الرب وأحاديث رسوله الكريم. وذبح الرجال خروفًا سمينًا، فاشتعلت النيران. وفاحت رائحة الشواء. وانتصبت قصاع الكسكسي. فأكل الضيف حتى شبع. وحمد الله. ودعا لهم بالمطر وبأعوام الصّابة. ثم نام في مكانه.

فجرًا، أفاق أهل النجع على صوت المقرئ يؤذن للصلاة:

- «الصلاة خير من النوم يا عباد الله».

فاجأ الصوت النائمين. فليس من عادتهم أداء الصلاة في أوقاتها، وخاصة صلاة الفجر.

عاد المُقرئ يلحّ أكثر من مرة:

«الصلاة خير من النوم يا عباد الله» ثم قام يؤدي الفرض مع ثلاثة من الشّيوخ وصلوا حين كاد ميعاد الصلاة يفوت.

بعد ثلاثة أيام، جمع الرجال أطفال الحيّ وقصدوا خيمة الشّيخ. سلّموا عليه ودعوا الأطفال إلى تقبيل جبينه ثم قالوا له:

- هؤلاء أولادنا، أكبادنا، جئناك بهم لتعلمهم لعلّ الله يفتح قلوبهم لنوره ينزع عنهم غشاوة الجهل.

وأرادوا الانصراف. فأوقفهم الشّيخ بإشارة من يده وهو يردد:

- لا تنسوا الليلة صلاة العشاء. إن لي معكم شأنًا معلومًا.

وارتفع صوت الإمام يردد كلام الله. فردد الأطفال وراءه الآيات البينات حتى انتصف النهار وانتصبت الشمس في كبد السماء. فسرّح الشّيخ أطفاله وأخرج سُبّحة وانهمك في الذكر والتسبيح.

قبل صلاة العشاء بقليل، ملأ رجال القبيلة المكان. فخرج لهم الشّيخ. سلم وصلى على النبي ثم طلب منهم أن يُحضروا أبناءهم بعد الصلاة. وذهب يتوضأ. وركبت الحيرة الرؤوس. لكنهم نفذوا طلب الإمام. ساقوا أطفالهم أمامهم وعادوا إلى خيمة الشّيخ وترقبوا حتى اكتمل الجمع فقال لهم:

- لقد نسيتم دينكم حتى صرتم لا تعرفون من الإسلام سوى الشهادتين وصيام شهر رمضان. وقد ائتمنتموني على أولادكم فدعوني أطهّرهم من رجس الشيطان.

وصار يفتح صدر الطفل فيمحو من على قلبه نقطة سوداء ثم يتفل بين إصبعيه، السّبابة والإبهام ويخيط بهما جُرح الصدر. ويدعو بطفل

آخر، إلى أن طلعت نجمة الصبح، فغادر الرجال والأطفال الخيمة يسْبقهُمْ نور من السماء يضيء لهم الطريق.

قال الشّيخ: «هذه كفارة عن سيئاتي. لعل الله يتجاوز عن إهمالي الوقوف بين المتحاربين من المسلمين حتى أمنع سفك الدماء والفساد في الأرض» وانخرط في بكاء محموم.

ومرّت الأيّام في النّجع هادئة لا يقطع رتابتها سوى الخصومات التي فضّها الشّيخ بالحسنى. كان يقضي بين المتخاصمين بما يرضي الله فقط، ولا يلتفت إلى أهوائهم. إلى أن وقعت الواقعة. يومها، انهمك الشّيخ في قراءة أوراده فنسي الدنيا وما فيها إلى أن بلغ سمعه صياح النسوة المتفجعات، وبكاء الأطفال، ونُواح العجائز، وهدير الرجال وصخبهم. فوضع سبحته على الرمل، وأصاخ السمع إلى اللغط الذي صار يقترب شيئًا فشيئًا حتى وصل أمام خيمته. فرفع رأسه يستطلع الأمر. وصله صوت «شيخ القبيلة» زاجرًا:

- سوف تقتله وتجرّنا إلى حرب لم نعدُ قادرين عليها! اترك الأمر للشيخ يا ولد!

ثم سلم على الشّيخ. ورمى بين يديه رجلاً مقيد الأطراف وهو يردد:

- لقد هتك هذا الرومي عرضنا يا شيخنا!

اقشعرّ بدن الشّيخ وحامت غمامة على وجهه فاصفرّ. وأسرّ لنفسه.

- ما قَبِلَ الربُّ توبتي فعاد يمتحنني بهذا الكافر!

وعاد الشّيخ إلى الكلام: «فاجأهُ الشباب وهو يتفخّذ عائشة!».

ثم قال وهو يضرب كفّا بكف: «الآن عرفت، لماذا صامت هذه الكلبة عن أولاد القبيلة!».

قال المقرئ: «وأين هي الآن؟ هل قتلتموها؟».

فردّ شيخ القبيلة: «هي في حماية بنادق أولادي!».

وزاد الشّيخ فاستفسر:

- وإخوتها، ماذا فعلوا؟

فقال سيد القبيلة:

- هم يحاصرون بنادق أولادي بعد أن اشتبكوا معهم بالأيدي والخناجر وحاولوا افتكاك عائشة بالقوة للأكل من كبدها.

قال الشّيخ: «هذه مصيبة وربِّ البيت».

وارتفع صياح الشباب: «ما حكم الشرع فيها يا شيخنا؟».

فقال لهم: «دمه مهدور، وحلال ضرب عنق تلك المرأة بالسيف يا أولادي».

ووخزه شيخ القبيلة بإصبعه في خاصرته وهمس له:

- هل تريد أن يفنى جند فرنسا شبابنا يا شيخ!؟

فانهدّ الرجل وهو يتمتم:

- ستلاحقني لعنتك يا ابن بهيّة إلى القبر.

وسكت أكثر من ساعة والرجال يتصايحون مطالبين بتنفيذ الحكم في الرجل والصبيّة إلى أن همهم الشّيخ:

- ترقبوا قليلاً، لعل الله يجعل للأمر مخرجًا.

وقام. فتعالت أصوات المحتجين متشنّجة. وانهال بعض الشباب على الرومي رميًا بالحجارة، ورفسًا بالأرجل. وحاولوا استباحة حرمة خيمة الشّيخ لكنهم ولّوا الأدبار وكأن رؤوس رماح تخز كامل أبدانهم.

كانت خيمة الشّيخ محاصرة بأطفال صغار يحمل كلّ واحد منهم بين يديه لوحًا ويقرأ بصوت جهير كلام الرب. فحطت السكينة على الحاضرين ثم بدأوا في الانصراف واحدًا وراء الآخر. قال الإمام لشيخ القبيلة لمّا بقيا منفردين مع الفرنسي:

- هل هذا الرجل متزوج؟

فردّ: «بل أعزب يا شيخنا».

وعاد يسأل إن كان هذا الفرنسي يحسن الكلام بالعربية.

فقال شيخ القبيلة إنه يتكلمها كواحد من أبنائها. فظهر البشر على وجه الإمام وتمتم:

- لقد وجدت الحلّ. سأهدي هذا الكافر إلى الدين الحقّ. فإن أجاب إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله حمى بدنه من الجلد في الدنيا ومن نار جهنم يوم الحشر.

والتفت الإمام جهة الفرنسي، وتحسس الحبل الذي يغله آكلاً من لحم يديه ورجليه، وحركه. فأنّ أنينًا موجعًا وسكت.

قال الشّيخ المقرئ: «ليس الآن وقت حساب وعقاب».

وتفل بين أصابعه ووضعها على الحبل وانحلّت عقدته. ومسح بالأصابع على جراح الفرنسي فأبلّت في الحين. وصفّق بيديه فنزلت من السماء مائدة عامرة بما لذّ وطاب من الأطعمة الشهية والماء الزلال. فغسل يديه وذكر اسم الله وطلب من الفرنسي أن يغسل يديه وأن يأكل من هذه الطيبات.

ثم أضاف يكلم الفرنسي:

- لا أظنّ أنّ أهل الدوّار سيبعثون لنا شيئًا من طعامهم هذه الليلة بعد أن أكلت من لحم ابنتهم يا ولدي!

والفرنسي مشدوه لا يدري إن كان في حضرة شيخ أو أمام ساحر. فكل ما في هذا الرجل يبعث على الاطمئنان ويملأ القلب فرحًا وسعادة ولكن ما يأتي به من خوارق زعزع كيانه وهزّ روحه القلقة. فقال وهو يمدّ يديه إلى الطعام المبسوط على المائدة:

- أنا لم أغتصب عائشة يا أبي. إنها تحبني وأنا أعشقها. إنني أنوي خطبتها من قومها ولا أريد بها سوءًا أبدًا.

- ولكن ديننا يمنع زواج المسلمة من الكافر. فهل لك في الإسلام يا ولدي؟

- اترك لي مهلة للتفكير وستعرف رأيي غدًا صباحًا يا سيدي.

وانتهى الشّيخ وضيفه من الطعام فصفّق مرة أخرى فَرُفِعَت المائدة

من أمامهما وارتفعت في الجوّ فتابع الفرنسي طيرانها بعينيه مذهولاً إلى أن صارت أصغر من قطعة نقود فضية، ثم غابت عن الأنظار. وارتفع صوت الشّيخ وهو يقرأ أوراده. وتلألأت الأنوار في قلب الفرنسي فنام على الرمل كما ينام الرضيع في حضن أمه الدافئ.

**(2)**

افتقد عملة محطّة القطار رئيسهم فذهبوا يبحثون عنه في بيته فلم يجدوه. رأوا الأبواب مُشرعة للريح، ولكن لا حياة في البيت فذهبوا إلى مقهى «داتاي» في قرية «فيليب توماس».

كان صاحب المقهي منهمكًا في حديث لا ينتهي مع الإيطاليين «بيراس» و«ليدّا». سأله أحد الأصحاب إن هو شاهد «لويس» في المقهى فلم يلتفت إليه. وعاد الصاحب يُلحّ في السؤال فأخبره «ليدّا» وهو يضحك بأنه رآه وقت الغروب يسير وراء أتان حبيبته البدوية. فافتكر الجماعة فجأة قصة حبه لعائشة وخافوا أن يكون البدو قد اختطفوه. فذهبوا سراعًا يخبرون رئيس مركز الجندرمة بغيابه.

ما وجدوا رئيس المركز لكنهم شاهدوا جندي الحراسة نائمًا، فأيقظوه.

طلب منهم أن يترقبوا طلوع النهار لعلّ الرجل يعود من غيبته سالمًا غانمًا. وعاد إلى النوم. وارتفع شخيره في الحال فرجعوا إلى المحطة.

استقبلهم مراقب السكة الحديد ملوّحًا بعلمه الأحمر وبفانوسه وهو يرتجف من الخوف. وقدّم لهم خادم شيخ قبيلة البدو المعسكرين قرب المحطة ليعلمهم بالواقعة فأقعوا على مؤخراتهم وأطفأوا الفانوس. ووصل الخبر إلى رئيس مركز الجندرمة العائد لتوه من صيد الغزلان صحبه مدير الشركة والرئيس المدير العام الذي حل البارحة بالمتلوي

قادمًا من باريس ليتفقد أشغال تدشين الأنفاق الجديدة.

قال حامل الخبر إنّ البدو ذبحوا «لويس»، رئيس المحطة وأكلوا لحمه وفرقوا دمه بين قبائلهم حتى لا تحمّل فرنسا قبيلة واحدة وزْرَهُ. فجنّ جنون رئيس مركز الجندرمة. استل مسدسه وراح يُطلق الرصاص في الهواء. فزعق صاحب البوق في بوقه وجيّش الجيوش.

اصطف الجنود في طابور طويل يسبقهم العلم المثلث الألوان وذهبوا بصحبة رئيسهم يستطلعون الخبر. وعلا غبار الصحراء تحت أقدام الجنود. ورفرف علم فرنسا عاليًا. وصاح القائد وهو يحاصر النجع من كل الجهات طالبًا أن يسلموه الأسير حالاً وبدون شروط. فجاوبته الكلاب بالنباح، والعويل. ولعلع بارود جنود فرنسا في الهواء. فخرج الشّيخ المقرئ من تحت خيمته، وأشار إلى السماء فامتلأ المكان بأضواء الشُّهب. وتحول ليل الصحراء إلى نهار. ساعتها طلب «لويس» من الإمام أن يعلمه كيف يدخل دين الإسلام فقال له:

- الأمر سهل يا ولدي. قل معي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فردّد الفرنسي الشهادتين. وخرج إلى الجند يطلب منهم الكف عن إطلاق الرصاص ويدعوهم إلى العودة إلى ثكناتهم لأن شيخ القبيلة استضافه الليلة. وهو سليم معافى بين العرب الذين أكرموه وبجلوه وأطعموه من لحم طيور الجنّة وسقوه من ماء نهر الكوثر. فعاد الجند من حيث أتوا وهم يلعنون الواشي الذي جعلهم يخسرون ساعات النوم الثمينة ورفعوا أعلامهم يلوّحون بها في وجوه الكلاب النابحة.

وعاد الفرنسي إلى خيمة الشّيخ. طلب منه يد «عائشة» وقفصًا مع سرب من طيور الجنة وقنينة ماء من نهر الكوثر. فترجّاه الشّيخ أن يترقب طلوع النهار لأن مع العسر يسرا.

إن مع العسر يسرا.

## (3)

وانطفأت أنوار الشهب. فخرجت الشمس من جوف العفريت الذي ابتلعها البارحة وملأت الصحراء بالنور والنار. فعادت الحياة تدب في الأرواح التي أرهقها النوم الثقيل.

وأفاق الفرنسي، فرأى في الركن الغربي من الخيمة قفصًا به سبعة عصافير، ريشها من الذهب الخالص، وعيونها من الزمرد الذي يخلب الألباب، ومناقيرها تصدح بأعذب الألحان. تسبّح لله الواحد القهار بكل لغات الطير إلى أن يصيبها العطش فتشرب من إناء من الفضة به ماء تفوح منه رائحة المسك والعنبر والياسمين.

قال شيخ العلم للفرنسي: هذه هديتي لك يا ولدي. اقبلها منّي وسأشكر لك صنيعك إلى أن أقابل ربي. فأنا لا طاقة لي على حمل أوزار أخرى من بني جلدي ولا على رؤية لون الدم مسكوبًا على رمال الصحراء.

وجاء الرجال فقال لهم: «هذا الرجل صار منكم». طلب منه أن يقول الشهادتين على رؤوس الملأ. وأن يكون من أصحاب الدين الحق. فوافق. وردد الشهادتين وراء الشّيخ، والدموع تسيل على خدّيه. وطلب من الشّيخ يد عائشة زوجة له في الدنيا والآخرة. فوافق الشّيخ بعد أن استشار إخوتها قائلاً:

- هل توافقون على مصاهرة فرنسا يا إخوة عائشة؟

فردوا: «لقد فوّضنا لك الأمر يا شيخنا ولن يكون لنا رأي يخالف رأيك». ومدوا أيديهم وقرأوا فاتحة الكتاب. وسلامٌ عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا.

## (4)

وحمل الفرنسي قفص الطيور وعاد إلى داره. وبعد أسبوع تزوج عائشة. أشهد على زواجه منها شيخ القبيلة وشيخ العلم ولكنه لم يبْن بها

إلا بعد أن طاب جرحه فقد قصّ «الطّهار» قلفته ليتمّم دينه ويدخل الجنة من بابها الواسع يوم القيامة تسبقه زقزقة العصافير وتفوح من ثيابه رائحة المسك الأذفر.

وصارت قصة الروميّ الذي عشق البدوية حديث القاصي والداني. وسارت بها الركبان. وبني عليها الحكاؤون قصصًا كثيرة تروى في ليالي الشتاء لتمضية الوقت. ولم ينسها الناس إلا بعد أن وصلت أصداء الحرب الكبرى إلى مناجم الفسفاط. فسكتوا عن هذه الحكاية ليبدأوا في سرد أحداث الحكاية الجديدة. حكاية الحرب التي شنها الألمان ضد فرنسا فأفنوا من أولادها خلقًا كثيرًا. وهرب البقية إلى تونس يطلبون النجدة من سلاطينها: سيدي محرز بن خلف وسيدي ابن عروس وأبي على السّني. فوعدوهم خيرًا. وعقدوا جلسة بدار الديوان في مقام سيدي الصّحبي بالقيروان، أفتوا بعدها بجواز قتال الألمان إلى جانب رجال فرنسا الحرة.

وسمع «القيّاد» و«شيخ القبائل والعروش» فتوى سلاطين البلاد فخرجوا يطوفون في الفيافي والقرى والمداشر يجندون الشباب والكهول ويبعثون بهم إلى ميناء «بنزرت» ليلقنوا الجيش الألماني درسًا لن ينساه على مدى الأيام والدهور.

قالوا لهم سيروا على بركة الله سيحميكم الأولياء الصالحون من رصاص الأعداء. ويكفيكم أن تذكروا اسم الله إذا سمعتم أصوات البنادق، سيكون وقعها على أبدانكم بردًا وسلامًا. «ويا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم».

وصدّق الشباب كلام شيوخهم فقطعوا البحر المتوسط وحطّوا الرحال في الأرض الباردة. لم يتوقعوا أبدًا أن الجليد سيفعل فيهم فعله بهذه السهولة. تجمّدت أطرافهم من البرد وماتت أصابعهم قبل أن تطلق الرصاص. فدفع بهم رجال فرنسا الحرة إلى حقول الألغام المزروعة بين

الطرفين المتحاربين. فطار لحمهم في الفضاء الشاسع مصحوبًا بأصوات دقّ البنادير وروائح البخور وصيحات الدراويش في الزوايا والتكايا.

واشتدت البلية على أهالي المنجم. فقد شحّت المؤن وصارت مقتصديّة الشركة تمنع عنهم السّميد والسكر والشاي والقهوة والقمح والشعير والزيت. وصارت الأجرة اليومية للعمال لا تكفي لشراء رطل سكر أو رطلي سميد. وازدهرت السوق السوداء التي غذّاها بالمؤن تجار أوربيون. فقلّ إقبال الأهالي على ارتياد السوق. وماتت الشّهوات في قلوبهم. واشتد نَهمُ التجار إلى الربح كلما زادت أصوات المدافع ارتفاعًا في البلاد الباردة. وخلت جيوب العمّال من العملات فتركوا «المدينة الحديثة» وعادوا إلى قراهم. وجدوها خالية تسكن أزقتها أشباح الموتى. وتُصفّر في شوارعها الريح الصفراء محمّلة بالغُبار والأوبئة.

وأُغلقت أسواق البيع أمام الشركة. فما عاد للفسفاط نفع في هذه الأيام المليئة بالموت والبوار. فصارت الشركة تكدس إنتاجها في المخازن وفي المنبسطات القريبة من المنجم حتى غطّت الصحراء أكداس التراب البُنّي التي امتدت على مرمى البصر. فسرّحت الشركة بقية العمال وأبقت على بعض الفنيين الذين أوكلت إليهم صيانة الأنفاق حتى لا ينهار الجبل. وكادت الشركة تعلن الإفلاس لكن أصوات المدافع سكتت فجأة فقد حوّلت بَرَكة «سلاطين تونس» الجيش الألماني إلى هشيم.

وعاد من شباب البوادي الذين ركبوا البحر أبطال يمشون على أرجل من خشب. ويرطنون بلغة فرنسية فصيحة. ويقولون لمن يقابلهم، بمناسبة وبدون مناسبة: "Finie, la guerre" يكررونها أكثر من مرة وهم يقلبون شفاههم ويبتسمون ببلاهة.

وحين يسألهم سائل عن بقية الصّحب يقولون إنهم فضّلوا البقاء في فرنسا، ويزيدون:

- ومن يبدّل اللحم الأبيض المُكتنز بهؤلاء البدويات العجفاوات غير

المجانين من أمثالنا يا رجال!

ويضحكون بضحك مجنون وهم يخبطون الأرض بأرجلهم الخشبية الشبيهة بقوائم المعيز الغبراء.

## (5)

رجل واحد لم ينس «عائشة». ظلّ حبّها يشتعل في قلبه اشتعال النار في الهشيم. فرفض فتوى «الشيخ المقرئ» ولم يخف بنادق جند فرنسا.

قال لأعمامه الذين سجنوه:

- أطلقوا سراحي وسأهجّ من هذه الأرض.

وبكى. فرقّ الأعمام لحاله وأركبوه القطار الذاهب إلى «صفاقس». فنزل في المحطة الأولى. وعاد على قدميه إلى «المتلوي».

قال يحدّث الناس المجتمعين في السوق:

- ما شأن «عائشة» بهذا الغريب؟ وما شأن هذا الغريب بعائشة؟

- يأتي من بلاد بعيدة.

يأتي من وراء الجبل الأسود.

من وراء زفير الريح والمطر الذي يبلل الأرض كل يوم.

يأتي من قلب الفجيعة.

من وسط نار القلب.

ويقطفها فاكهة طازجة.

وأنا.

أنا «شداد» المتيم بها ترمي بي رمي النواة في الرمل.

ولا تلتفت لدمار روحي.

وتذهب هكذا فاتحة قلبها ويديها للمجهول.

آه يا «عائشة»! لن أتركك تضيعين منّي ضياع الماء بين الأصابع.

أنا الذي رأيتك تكبرين بين طلوع الشمس وغروبها.

بين تفتح الزهور وذبول الأمل.

بين انفتاح شبابيك قلبي وهبوط الليل على هذا النّجع في هذه الصحراء.

سمعتُ روحي تهتف لروحك قبل خلقنا وقبل أن تعرفي أنني ابن عمك الذي كتب عليك أن ترتبطي به لحظة الصرخة الأولى.

ما أقسى قلبك.

أيتها...

أيتها...

أيتها الفاجعة.

فليحاكمك الأهل.

لا يهمني أن تبرّئي.

أما أنا فسأرمي بلحمك لذئاب الليل النابت على أكتاف هذا الجبل.

إنني أطالب بحقّي فيك.

ولن أتراجع أبدًا.

ومزّق ثيابه ومشى في السوق عريان السّوأة.

فمشت بشعْره الركبان.

وغنّاه القوّالون في الأعراس.

وبكت به النّائحات في المآتم إلى يوم الناس هذا.

# الفصل السادس

هل يستوي الذين يَعْمَلُونَ
والذين لا يَعْمَلُون ؟

# الباب الرابع عشر

*وفيه قصّة أول إضراب شنّه عمّال «شركة فسفاط قفصة». وتفاصيل عن وصول النّقابي الإيطالي «زلّزي» إلى محطة المتلوي. وكيف احتفل الأهالي بهذا النّقابي. كما يحكي عن المصائب والأهوال التي عاشها عمال المناجم في بداية القرن الفائت.*

## (1)

عرفت إبراهيم «زَلِمِيتَهْ»(*) بعد أن أعدت ابنة عمّي «فاطمة» إلى بلاد الجريد. كبُر بطنها وانتفخ فأصابها الرعب. قالت لي أكثر من مرة إنَّ طيورًا صغيرة لها وجوه آدمية تخرج من أسفلها كل صباح. ترفرف أمام وجهها ضاحكة مستبشرة ثم تطير جهة الغرب. وظلت تردد على مسمعي هذه الأحاديث إلى أن سألتها إن كانت ترغب في العودة إلى القصر فقالت إنها ما نسيتْ طيورها وإنها ستسعد كثيرًا هنالك.

واقترح عليّ إبراهيم «زَلِمِيتَهْ» أن يقاسمني مسكني فلم أُمانع.

لا أدري ممَّ قُدّ هذا الرجل الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً. فقد سمعته مرات عديدة يردد بصوته الجهوري في مقهى «داتاي» بقرية «فيليب توماس» على مرأى ومسمع من رئيس مركز الجندرمة، كلامًا يهدّ الجبال.

سألت عنه فقيل لي إنه جاء من المغرب، من جبال الريف.

جاء بلا عائلة فقال للناس إن عائلته عمّال المنجم.

---

(*) زلميته: من الفرنسية "allumettr" وتعني عود ثقاب.

ولم يجد مسكنًا يؤويه، فقال إنّ منزله أنفاق الجبل.

وعرفته، فآويته ولم أندم أبدًا على ذلك. فقد أنساني مدة إقامته معي، فاطمة وطيورها الغريبة.

قال لي - بعد أن توطدت علاقتنا - إنه كان يعمل في مناجم «سانت اتيان»(*) بفرنسا وإنه تعلم هناك ما لو علم به عمّال هذه الأرض لأحرقوا الأخضر واليابس تحت أرجل أسياد هذه الشركة.

وبدأ الإيطاليان «ليدّا» و«بيراس» يزورانه فينزوي معهما في غرفته ويطلب مني أ لا أسمح لأحد بالدخول عليهم بدون إذنه.

وتستمر اجتماعاتهم إلى ما بعد منتصف الليل...

## (2)

غير بعيد عن باب النفق، توجد ساحة واسعة تُستعمل لتجفيف الفسفاط. كلفت الشركة العمال القادمين من وادي «سُوف»(**) بهذه المهمة الشاقة. يحمل الرجال قفافًا ملأى بهذا التراب على ظهورهم من أعماق الجبل حتى وسط الساحة. ثم يكدّسون الفسفاط على الأرض أكداسًا فوق بعضها ويحرسونها بالفؤوس جيئة وذهابًا. ويظلّون يقلّبونها طول النهار تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة إلى أن تجفّ. فيعودون من جديد إلى تحميل الفسفاط على ظهورهم في قفاف من سعف النخل لتكديسه في المخازن أو في العربات الذاهبة إلى ميناء «صفاقس».

هؤلاء الرجال ذوو الأجسام الخفيفة التي جففها لهب الشمس اعتادوا على هذا العمل منذ الصّغر. إنهم في صراع قديم وأزلي مع الرمال التي تهب على قراهم في فصل الربيع زارعة الخراب في طريقها.

---

(*) Saint Etienne: مدينة بشمال فرنسا كانت بها مناجم حديد في بداية القرن الفائت.

(**) سوف: منطقة واحات في الجنوب الجزائري تُتاخم واحات الجريد.

رياح رملية هوجاء تمرّ حاملة معها العذاب لهؤلاء الرجال الذين استوطنوا حافة السراب. فتغطّي المنازل والمزروعات وعيون الماء. وتنفذ داخل العيون والأنوف والأفواه والآذان وهم لا يكفّون عن المجابهة. وراء قفة. يجهرون عيون الماء. ويرفعون التراب عن الخضر. ويعَرّون أساسات المنازل وحجارة القبور وألواح الأبواب.

ويُوَبّخون الريح.

في بداية هذا القرن هجّ السّوافة. تركوا واحاتهم وجاءوا يبحثون عن الرزق. في هذه «المدينة الجديدة».. ووجد فيهم سادة الشركة ضالتهم فكلفوهم بالعمل خارج «الدّواميس». ودفعوا لهم أجورًا زهيدة لا تتجاوز في الغالب فرنكين أو ثلاثة في اليوم الواحد.

وغلبهم طبعهم الهادئ فقبلوا هذا المنّ وهذه السّلوى. وشكروا نبيّهم الذي أوصلهم إلى هذه الأرض الطيبة.

سكنوا في الأيام الأولى مغاور حفروها على ضفاف الوادي. واستوطن جماعة منهم الأنفاق المهجورة. ولمّا استقرتْ بهم الحال وذاقوا الخبز الإيطالي بنوا منازلهم على شاكلة المنازل التي تركوها في مداشر وادي «سوف» بالطين والرمل المخلوط بالقشّ. وجعلوا لها أسقفًا ذات قباب تجنّبهم برد الشتاء وحرّ الصيف. وتفننوا في زخرفتها حتى صارت تحفًا فنية رائعة لا يكف الفرنسيون عن زيارتها والوقوف الساعات الطوال أمام واجهاتها لتفسير الرسوم التي تزينها.

مكتوب عليك يا «سُوفِي» أن تظلّ تحمل على ظهرك وِرز أجدادك الذين ضاقت بهم الأرض الوسيعة فاستوطنوا الصحراء.

مكتوب عليك أن تظلّ تحمل قفاف التراب، على ظهر الأرض أو داخل بطنها. لا فرق عندك، قفاف الرمال أو قفاف الفسفاط.

فالأمر سيّان.

ولا خِلاف.

سوى أنّك كنت تُصارع جنّ الرمل في بلادك.

أمّا الآن.

فأنت تعمل في بلاد الناس.

وفوقك ملايين الأطنان من الحجارة والعذاب. ما أشقاك يا ابن أمّي.

بين أهلك.

أو في بلاد الغُربة.

قلت لي أكثر من مرة إنّك ستهرب من هذا الجحيم ولكنّك تحنث دائمًا بوعدك وتعود تحرّك الفأس في قلب التراب تحت شمس شهر أوت القاتلة. تسمع أنين الحجر والحديد ولا تتأوه أبدًا.

أقول لك هوّن على نفسك يا صاحبي فتردّ:

- وماذا سأطعم الفراخ هنا وهناك؟

وتعمل ليلاً ونهارًا ولا تتعب إلى أن اعترض سبيلك ذات يوم إبراهيم زَلِيتَهْ فأدخل في رأسك دودة أطارت النوم من عينيك وجعلتك ترى بوضوح أكبر، جثة المراقب الفرنسي الذي لا ينفك عن نهرك وقهرك والطمع في الفُتات الذي ترتزق منه. فيقتطع من أجرتك الهزيلة يومًا أو يومين بدعوى أنك كنت تستظل بعريات الفسفاط القريبة منك. أو أنك أبطأت حين ذهبت تشربُ. أو أنك تطبخ الشاي وتتركه يَتَبخّر في الجو لتَشُمّ رائحته أرواحُ أجدادك. أو هكذا لوجه الله، لم يستلطفك هذا اليوم!

قال لك إبراهيم زَلِيتَه:

- لماذا لم تحاول دفع ضُرّ هذا المُتعجرف عنك؟

فقلت له:

- كيف ذلك يا صاحبي، وهو يملك في يده مفاتيح باب رزْقي؟

ردّ وهو يتّقي بيديه لهيب الشمس:

- تنظر في وجهه شزرًا. وتَتْفُل أمامك على الأرض. وتَقُوم كأنك

ذاهب لقتل العذاب.

قال: «وماذا ستنفع هذه التمثيلية؟».

ردّ إبراهيم: «بعد ذلك تشدخ رأسه».

بعد ثلاثة أيام شدخ «السّوفي» رأس الفرنسي بحجر وصاح:

- «وَاذُلاَهُ!».

فتجمع لندائه خلق كثير من العرب العاربة والمستعربة ومن أبناء القبائل ومن حلفائهم من العجم والبربر.

وصار للأنديجان(*) شأن بعد تلك الحادثة. طاف مدير الشركة مصحوبًا برئيس مركز الجندرمة على مداشركم. ووعد بتحسين الأحوال وبالزيادة في الأجور نصف فرنك في اليوم الواحد. وتغامزتم فيما بينكم وادّعيتم أمامه بأنكم تحبّون فرنسا وتفدُون علمها بدمكم وعرقكم.

وذهب الفرنسي، فعادت الدودة التي زرعها إبرهيم زَلمِيتَهْ في رؤوسكم تَخِزُ ضمائركم وتحرضكم على خير العمل. فعدتم إلى حانة «مارياني» بـ «فيليب توماس» تشربون الخمور الرّديئة وتتبادلون الهمس مع «داتوي» و«ليدّا» و«بيراسّ» حول مصير أمّة «المطاريد» التي طوّحت بها الأقدار داخل كهوف جبال الجنوب الموحشة.

ذهبت إلى المقهى، في المرات الأولى مع صديقك إبراهيم. ثم اعتدت الذهاب وحدك. ما ظننت أبدًا أنّ هناك أوربيًا واحدًا يحب أمّة الإسلام إلى أن اكتشفت هؤلاء الطليان القاطنين في منازل قريبة من المحطّة. رجال يشبهونك في كل شيء حتى في لون أبدانهم التي حولتها شمس الصحراء إلى السمرة الداكنة. واقتربت منهم أكثر فشاطروك طعامهم والهواء الذي يتنفسونه. وصرت تصطحب معك للاجتماعات السريّة إخوانًا لك من طرابلس الغرب، ومن ريف المغرب، ومن جبال جرجرة،

---

(*) الأنديجان (Les indigènes) تسمية أطلقها الأوربيون على السكان الأصليين للمستعمرات ويُراد بها التحقير والامتهان.

ومن بلاد الجريد، ومن أهالي قفصة. فتوطدت عُرى الصداقة بين العرب في حضرة عمّال إيطاليا المسكونين بالضحك العالي، والكلام النابي، والأكل حدّ التخمة، والكرْع من قوارير الخمرة وأباريقها، والعربدة، وسبّ ظُلم ذوي القُربى. سمعتَ لدى هؤلاء العمال الإيطاليين كلامًا في طعم العسل:

«سنُرغم هذه الشركة على أن تعدل بين عمّالها. ولم نتراجع خطوة إلى الوراء أبدًا». فيلتهب الحماس في قلبك. وتتفتح أمام ناظريك كُوى يمرّ منها النهار في ظلام ليلك الحالك.

وصرت تحمل هذا الكلام إلى مداشر العرب تبشّر به في كل مكان. فمشى وراءك أبناء العمّ ومدّوا لك أيديهم يُبايعونك على ألا تغدر بهم وتسلم عرقهم في أكواز من الفخّار إلى قصر الرّوم.

(3)

ازدان سماء «عزيز السلطاني» بالنجوم الزاهرة بعد أن وصلته رسائل من «فاطمة». رسائل كثيرة حملها إليه «هاتف»(*) بشّره بمولود من جنس الذكران.

ولم يسمعه «عزيز». فالنيران ملتهبة في كل مكان والقلوب ملتاعة لا تسع الفرح.

فعاد الهاتف يذكره في أواخر الليالي المقمرة بالمولود الجديد.

ينتصب على السرير ويهتف:

- فاطمة تنتظرك لتُسمى المولود يا عزيز!

وظلّ يلحّ إلى أن قال له:

- سمّه «محمدًا» يا صاحبي!

فطار «الهاتف» بالبشرى. حطّ على حيطان القصر المهجور وصاح:

(*) «الهاتف» و«الرّئي» جنس واحد من الجن الأزرق.

- سمي المولود «محمدًا» يا فاطمة.

وذاب في السحاب.

**(4)**

عاد الإيطالي «ليدًا» إلى الدّار متأخرًا جدًا. وعلى غير عاداته، كان البشر يفوح من وجهه هذه المرة. طرح بعيدًا رداء اليأس وتأكد أنه يستطيع صنع الربيع في هذه الأرض.

قلتُ له وأنا أتثاءب:

- أراك مبتسمًا، تدندن بأغانيك الخفيفة يا عزيزي. هل قبلت «أنطونيلا» أن تعطيك خدّها هذه المرة؟

لم يردّ «ليدًا» على هُزْئي وواصل دندنته وتصفيره. ثمّ ذهب إلى الحمّام فصبّ على جلده سَطْلين من الماء البارد. وغيّر ملابسه. وجاء يجلس على الفراش.

وفاحت رائحة القهوة التي أعددتها في المطبخ الصغير وضعت قدحًا أمامي وقدحًا أمامه فبدأ في ترشف القهوة شاكرًا ممتنًا. ولم أطقْ صبرًا فسألته عن اجتماع نقابة الحديديين بقفصة وهل قبلوا حضور ممثلين عن عمال شركة الفسفاط في اجتماعهم؟ ولكنه تمادى في تصفيره. ثم رفع صوته بلحن راقص. فجأة أنهى الارتشاف من فنجان القهوة وقال:

- اليوم التقيتُ بالرفيق «زارّي» وقد تبنّى مشروعنا في تكوين نقابة لعمال المناجم ووعد بالمجيء إلى المتلوي.

فسألته: ومن «زارّي» هذا؟

قال: هو ممثّل اتّحادات النّقابات بتونس. وهو صديق قديم.

وصفّق وهو يصيح: «أزفت الساعة الآن يا صديقي، وحلّ وقت العمل والكدّ».

ولم يكد ينهي كلامه حتى دخل «إبراهيم زَلِيتَهْ» فوقف الإيطالي وضرب له سلام تعظيم، وهو يضحك. ثم تلقاه في حضنه. وراح كل واحد منهما يربت على كتف الآخر إلى أن قال إبراهيم:

- أخبار سارّة جدًا يا رفيق! الأمور تجري كما تريد في منجم «الرديف». لقد عدت الآن من هناك بصحبة «بُوسْتُورِينُو» و«اسماعين» بعد أن وزّعنا خمسمائة من بطاقات النقابة على العمال، وتقابلنا مع الرفاق وأكلنا حتى شبعنا كسكسًا ولحمًا. وطفنا بالأحياء. ووصلنا حتى دواوير أولاد «سيدي عبيد» والمغاور القديمة التي يسكنها «المغاربة» و«السّوافة». ورأينا العجب العُجاب: رجال مع عائلاتهم يسكنون داخل الأنفاق التي هجرتها الشركة. وآخرون حفروا مساكن على جنبات الوديان، لا فرق بينهم وبين الجرذان والأفاعي. عائلات بأكلمها تعمر مغاور بلا أبواب ولا مرافق صحيّة ولا أثاث ولا فُرش. والبقية انحشروا في مساكن جماعية تفوح منها روائح الغائط والبول والمني. وتسكن في جنباتها الأمراض والأوبئة. وتكثر فيها السرقة واللّواط والقتل لأتفه الأسباب.

قال «ليدًا»: أعرف هذا وأكثر يا رفيق. وتهدج صوته حتى كاد يبكي وهو يحدثني عن الأموات الذين قتلهم وباء «الكوليرا» هناك منذ ثلاثة أشهر.

قال: إن الشركة على علم بأن هذا المرض يعشش في تلك المساكن البائسة. ولكنها لم تفعل شيئًا إلى أن كادت تحصل كارثة. فقد أركب بدويّ قريبه المريض بالكوليرا على جمله وراح إلى دوّارهم وهو يحدُو وراء الجمل وينوح. فتحركت الإنسانية في قلب الطبيب الذي تكتم طويلاً على الخبر تحت تهديد الشركة خوفًا من فرار العمال من المنجم. فأمر بإحراق جثث الموتى وبتطهير المبيتات بالجير.

ولكن المرض أهلك خلقًا كثيرًا في البلاد القريبة من المنجم وفي قرى بلاد الجريد ونفزاوة.

واتفقنا على الاجتماع غدا في دار «أولاد مطرود».

## (5)

وصل الجماعة قبلي إلى دار «أولاد مطرود الطّرابلسيين» الحاج مرابط القبائلي والشاوش علي المرّوكي وإسماعين الجريدي وعلي بن عامر البويحيي وحميدان السّلامي. اصطحب كل واحد منهم عددًا من بني قومه فامتلأت الدار الكبيرة من أدناها إلى أقصاها.

كان الأطفال والنسوة يملأون ساحة المنزل فكأن الليلة عُرْس. ذُبحت الذبائح. وفاحت رائحة الكسكسي. وامتلأ المكان بالبهجة. ولم تطل غيبتنا. فقد خرجتُ من داري مصحوبًا بالإيطاليين الذين قرروا حضور الاجتماع. وقدّموني. فدخلت أولاً مُفسحًا الوقت للنساء حتى ينزوين في إحدى الدور. وجاء بعدي «ليدّا» و«دَاتُويْ» و«لويجي». فأوصَلْنَا الأطفال إلى قاعة الاجتماع. ووقف الرجال للسلام علينا والترحيب بنا. وتبادلنا الأحاديث الجانبية والسؤال عن المعارف والأصدقاء وأشياء أخرى. وارتفعت الضحكات هنا. وانفجرت الشفاه تبتسم هناك، إلى أن قال الحاج مرابط بصوته الجهوري:

- صلوا على رسول الله يا جماعة.

فارتفعت الأصوات تصلي وتسلم على خير البرية. وبسملت الشفاه ومسحت الأكف الوجوه وساد الصمت والترقب. فعاد الحاج مرابط إلى الكلام:

- نحن الليلة في دار «أولاد مطرود» لأمر مهم. لقد نسينا الضغائن والمآسي. وتآخينا، لأن الصبر على المكاره ما عاد يُجدي نفعًا. فهذه الشركة كما رأيتهم قد تمادت في غيّها. ورئيسها رفض الزيادة في أجورنا التي ما عادت قادرة على إطعام أولادنا خبزًا حافًا.

فصاح رجل من ركن البيت:

- صار ثمن الخبزة فرنكًا.

وجاوبه صوت آخر:

- وثمن كيلو الشاي ستة عشر فرنكًا.

فتأوّه إسماعين:

- وكيلو السميد بفرنك ونصف.

فقال علي بن عامر البويحيي.

- ولتر الزيت بأربعة فرنكات.

وأضاف حميدان:

- ورطل القهوة بستة فرنكات وكيلو اللحم بخمسة.

فهمهم الحاج مرابط:

- والمرتب لا يفوق أربعة فرنكات في اليوم!

أعرف... أعرف... يا جماعة! لكلّ هذا اجتمعنا الليلة في هذه الدار، لنتفق على قرار نلتزم به جميعًا. والله يهدينا طريق الصواب.

ثم أعطي الكلمة «لليدّا» الذي كان منشرح الصدر يهزه الطرب. فقال إنه عاد البارحة من اجتماع نقابة سكة الحديد. وإنّ الجماعة شجعوه على تكوين نقابة لعمال المناجم. وأعلمهم بأن النقابي «زارّي» سيزور المنطقة في القريب العاجل. ووزّع تحيات المجتمعين في قفصة على المجتمعين في دار «أولاد مطرود».

وجلس «ليدّا» فعمّ البشْرُ الوجوه وارتفعت القبضات في الهواء.

وقبل أن يُبْسَطَ الأكل أمام الجميع أخرج الحاج مرابط من جيبه مصحفًا وضعه فوق قطعة من قماش القطيفة الأخضر. وطلب من الحاضرين أن يقسموا بالله بعد أن يضعوا أيديهم على «الكتاب» بأن يحفظوا سرّ هذه الجلسة على الأعداء. ومرّ الرجال واحدًا وراء واحد أمام المصحف وهم يقسمون بالله على أن يدفنوا هذا السرّ داخل شغاف القلب. وجاء دور «ليدّا» فمرّ أمام «الكتاب» بخضوع. وتبعه «دَاتُويّ» و«لويجي».

بعد العشاء اتفقوا على مواصلة تحثيث العمال بالمطالبة بالأجر

العادل لقاء عملهم في الأنفاق.

وهدد رجال طرابلس باللجوء إلى القوة وحرق المنجم والبلدة إذا لم تمكنهم الشركة من طعام الأولاد والنساء. قال علي المصراتي:

- الأمر بسيط، نُشعل النيران في الخشب الذي تتوسده الصخور التي تحمل على أكتافها ثقل الجبل فتنهار. وينهار وراءها الجبل كما وقع عام الفجيعة الكبرى. ونرتاح ويرتاح الجميع. الظالم والمظلوم والقاتل والمقتول والجائع والشبعان.

ولكنّ رأي الأغلبية ذهب في اتجاه آخر.

قالوا: «نُطالب بحقنا بالحكمة والموعظة الحسنة».

وتكلم «ليدّا» مرة أخرى فقال: «علينا أن نعمل كالذئاب وأن ننام بعين ونراقب الأعداء بالعين الأخرى. وأن لا نعوّل إلا على سواعدنا وعلى الرأي الصائب».

ووزع على الحاضرين بطاقات اشتراك في النقابة ممهورة بإمضائه وطلب منهم توزيعها على معارفهم من العمال.

وخرج الرجال من الاجتماع يبشرون بالغد الأجمل الذي ستفوح فيه الأزهار على شرفات بيوت العمال. وتمتلئ بطون الصغار بالحليب. ويذهب فيه أطفال «الأنديجان» إلى المدارس. ويقلّ جهد الرجال في المنجم. وتجري الفرنكات بين أيديهم.

ولم يحضر إبراهيم «زلميته» ذلك الاجتماع فكثرت الأسئلة حول غيبته لقد اختفى في الطريق بين داري ودار «أولاد مطرود». ثم ظهر بعد ثلاثة أشهر في صورة «شقّ». «شقّ» شرس يقفز على رجل واحدة ويشعل أعواد الثقاب في كل مكان فأهلك خلقًا كثيرًا من أعوان فرنسا. وظلّ يقفز ويشعل النيران إلى أن قتلته كتيبة من جنود المستعمرات. خرّقوا نصف الجسد المندفع في وجوههم بآلاف الطلقات.

ولمّا اختفى صوت الرصاص وضاعت رائحة البارود داخل دواميس

الجبل اكتشفوا لدهشتهم نصف رجل: رجْل واحدة ويد واحدة وعين واحدة وقلب يملأ الصدر(*).

وانتبه رجال الإدارة إلى الوهم الذي لفح وجوه العمال بالسعادة الغامرة فجَروا وراءه يأسرونه ويعوّضونه بالظّلام.

وأعلم مدير الشركة الكاتب العام للحكومة بأن الطليان حرّضوا العرب ضد فرنسا فارتفعت أصواتهم تُطالب بالمُنكر: «الأجر العادل لقاء نفس العمل». "A travail égal, salaire égal" ولكن هل يستوي الذين يعْملون والذين لا يعْملُون؟ وهل تدفع الجنّة إلى هذا الجحيم؟

قال له: «أيعقل هذا يا سيدي الكاتب العام لحكومة فرنسا الموقرة؟!».

فردّ عليه بوقار رجل الدولة: «دَاوِهِمْ بالتي كانت هي الداء! امنع عنهم العمل في شركتنا ليموتوا جوعًا كما تموت الكلاب!».

فبثّ المدير عيونه أمام أبواب أنفاق المنجم ليمنعوا مَنْ هَتَكَ عِرْضَ فرنسا من ولوج أبواب رحمتها. فوقف رجال أشداء أمام الأبواب. وصوبوا نيران أعينهم على الداخلين. واطردوا كل من رفع عينيه في وجوههم. ونفضوا أيديهم. وعادوا إلى قواعدهم سالمين.

وظنت الشركة أنها تخلصت من مُثيري الشغب فأعلن مديرها على رؤوس الأشهاد أنه سيُرفّع في أجرة العملة العرب نصف فرنك آخر في اليوم الواحد!

وتساءل هل يشبع هؤلاء الكسالى الذين يبذرون نِعَم فرنسا ورحمتها على الخمر والميسر والقحاب؟

واستدعى رؤساء المجموعات الأهلية. جميعهم في بهو الإدارة. وأطلق

---

(*) تعليق من المؤلف على هذه القصّة: توجد جثّة «شقّ» إبراهيم «زلمينة» محنّطة في متحف «باردو» بتونس العاصمة مُخرّقة بالرّصاص ويفوح منها إلى الآن عطر البارود. وعلى من يُكذّبني أن يزور المتحف ليتأكدّ من صحّة هذه الرّواية. والله على ما أقول شهيد.

بينهم كلابه المسعورة تنفث السمّ في وجوههم. فحدثوهم عن الجنود السينغاليين الذين جلبهم رئيس الشركة من فرنسا وعن الأفعال الفظيعة التي بإمكان هؤلاء السودان اقترافها.

قالوا إنّ الرئيس سيسمح لهؤلاء الجنود باغتصاب النساء وببقر بطون الحبالى. وقالوا إنهم سيشربون الخمر في قحاف رؤس القتلى بعد أن يأكلوا لحومهم مشوية على نيران الفحم الحجري!

وأمر الرئيس بإدخال رؤساء المجموعات واحدًا وراء الآخر يمدّ له يده مسلمًا ويأمر له بقهوة وينهمك معه في حديث عن خطر هؤلاء الشيوعيين الذين سيجعلون بطون أطفالهم تمتلئ بالدّود ثم تنفلق لتهجم هذه الهَوام على حديقة قصره. فتأكل أزهارها وتمتص ماءها وتتنفس هواءها. فيعمّ البلاء هذه الديار التي حوّلتها فرنسا إلى واحة سلام وازدهار في هذه الصحراء الكئيبة. ساعتها، يقول المدير، لن تنفعكم رحمة ربكم ولن يجدي استعطاف السماء.

ثم يختم حديثه بالدعوة إلى طرد المُحرضين على الشغب أو الإعلام عنهم لتقديمهم إلى العدالة.

ويخرج الرجل. فيبادر المدير إلى غسل يديه بالماء والصابون المعطر. ويدعو عاملاً فيمسح الكرسي الذي كان يجلس عليه ويفتح نوافذ القاعة ويهشّ الهواء الفاسد قبل أن يغلق الشبابيك.

هكذا قضى المدير الأيام الأولى من شهر أفريل عام عشرين: محادثات مع أعوانه المخلصين. ومحاولة لتجنيد الرجال لصدّ هجمة النقابة التي ترأسها الإيطالي «ليدّا». وتخويف لرؤساء المجموعات الأهلية حتّى يمتنع منظروهم عن المشاركة في الإضراب.

ولم يعد الرجل ينام.

نزلت على رأسه مقارع الخوف وتجاذبته الظنون من كل جانب. وحاول ردّ نُذُر الشّؤم التي جاءته بالخبر السيئ الذي انتظره منذ أيام.

أعلن عمّال منجم «الرديف» الإضراب عن العمل. وضرب المدير وجهه بالكفّ حين أعلمه أعوانه أن من بين المضربين مائة وخمسين إيطاليّا وعددًا لا بأس به من العمال الأوربيين.

واطمأن قلبه بعض الاطمئنان فقد امتنع عمال فرنسا عن المشاركة في الإضراب.

قال: لقد أينع الخوف في قلوب رجالنا وفي هذا كفايتي!

لن أقطع عنكم امتيازاتي أيها الأحباب، وليأكل البقية عقارب هذه الصحراء وأفاعيها وجيف الكلاب الموبوءة.

# الباب الخامس عشر

*يروي تفاصيل إضراب «الأربعين يومًا»، وكيف أن الربّ لم يخلق هذا الدّنيا من أجل شخص واحد. ويتحدث عن عنف إدارة الشركة وطيبة قلوب العمّال عربًا وأعاجم.*

## (1)

كان مدير الشركة يزمجر كالأسد بعد أن ضرب بيديه بلّور طاولته الفخمة ففتته قطعًا صغيرة.

- سأجلعكم تأكلون فُتات الخبز المنثور تحت أقدامي يا أولاد القحاب. ستموتون جوعًا بعد ثلاثة أيام.

ستأتون كالكلاب الجائعة تبصبصون بأذنابكم وتطلبون العفو مني. ولن أرحمكم.

وقتها سأدوس على رقابكم.

وسأخرجُ أيري لأبول عليكم.

ولن أهدأ حتّى أطردكم من مكتبي عُراة حفاة.

وأطوف بكم شوارع «فيليب توماس» داخل أقفاص مسيّجة بالحديد.

سأجعلكم فرجة يا كلاب.

سأجعلكم أضحوكة هذا العصر.

وعاد إليه الهدوء شيئًا فشيئًا فراح يجلس وراء طاولته بعد أن طرد مندوبي عمال منجم المتلوي الذين جاءوا يعرضون عليه مطالبهم. فخرجوا من عنده وهم يهددون بالويل والثبور وبعظائم الأمور. وتمسّك كل واحد من الجماعة بطرف الحبل رافضًا التسليم أو الدخول في هدنة

إلى أن أعلنت النقابة الوليدة بعد ثلاثة أيام من اللقاء مع المدير الدخول في إضراب مفتوح. ودعت منخرطيها عربًا وأوربيين إلى الامتناع عن العمل. فلبّى ثلاثة آلاف عامل النداء وهم يرددون صرخة النقابي الإيطالي «زارّي»: «ولم يخلق الربّ هذه الدنيا من أجل شخص واحد وإنما أعطى للجميع حقوقًا متساوية».

إنه الإضراب الأول من نوعه الذي شارك فيه عمال من جنسيات مختلفة في شمال إفريقيا.

قالوا سننطح الصخر برؤوسنا ولن نهاب الموت.

وسنجتاز الصحراء ولن نخاف العطش.

وسنأكل تمرة واحدة ولن نجوع طول اليوم.

ولكنّنا لن نركع.

وردّ مدير الشركة على الإضراب بعنف. وقف يصرخ فوق بناية البُرج مواجهة الساحة التي اجتمع فيها العمال المضربون:

- أنا ربكم الأعلى يا شذاذ الطرق! سأرفع عنكم رحمتي انطلاقًا من هذه الساعة.

وأمر بطرد المحرضين على الإضراب. فزاد فتيل النيران اشتعالاً. ولم تُجْدِ تهديدات هذا الرب نفعًا، إذ تجمهر المضربون يوم 18 أفريل أمام محطة القطار مبتهجين بقدوم «زارّي» إلى المتلوي. وأعلنوا في كامل البلاد أن هذا الأسبوع سيكون أسبوع الفرح الدائم. وزينوا المحطة بالشرائط الملونة وأعلام الأولياء الصالحين. وجلبوا الطبول والمزامير والبواريد. وبدأ الرقص والتطبيل والتزمير منذ الصباح الباكر. ووصل القطار فعَلَتْ هتافات أكثر من ألف عامل تصرخ منادية بحياة «زارّي». وجرى رجل غليظ، عريض المنكبين فأركب النقابي على كتفيه وبدأ يرقص وسط حلقة من المحتفين بالرجل. رقص على رجليه ثم على رجل واحدة والأصحاب يهللون ويكبّرون مرددين بأصواتهم العالية.

« لِضْرَابْ يا مَخْلاه جابْلِنا لِحْقوق معاه».

والإيطالي يـردّ على تحـياتهم رافعًـا قـبضـتـه في وجـه مـن ادّعى أنه الرّب الأعلى. وأنزله الرجل من على كـتـفـيـه فـاحـتـضنه النقـابي وقـبّل جبينه، وهو يصيح مع الصائحين.

وطاف المضـربون مـصـحـوبين بـ«زارّي» أحـيـاء «المدينـة الجـديدة». فاستقبلتهم النسـاء أمام الأبواب، سافِرات، مـزغـردات ومـغنيـات أعـذب الألحان البدوية.

وكان «زارّي» يقف للتحـيـة أو لردّ التحيـة ثم يواصل تجواله محفـوفًا بجمع غفير من مـريديه. إلى أن هبط اللّيل فذهب إلى دار «ليدًا». ولكنه لم ينم تلك اللّيلة. فقد تواصل الحفل في هناء وسـرور وغناء وحبور إلى أن طلع الصّباح، فدعا «زارّي» إلى اجتماع عـام تدَاعَى له الخلق من كامل الجهات. فأعلن عن حلّ النقابة لأن الشركة طردت أعضاءها من العمل وشطبت أسـمـاءهم من سـجـلاتهـا وأبدلهـا بلجنة إضـراب تتـركب من فـرنسـيين وأربعـة إيطاليـين وسـتـة مـغـاربيـين. وعـاد الطبل إلى الرّزْم فارتفعت هتافات الاحتجاج إلى عنان السماء.

(2)

وامتـلأ قلب مـدير الشـركة بالقـيح ونَغَلَت فيـه الديدان فـحـرك جنود الجندرمة فانداحوا يملؤون الشوارع بالخـراطيش الفارغة وبنباح الكلاب. واحـتلوا منافـذ العـمل خـوفًا من أن يخرّب المضـربون الأنفـاق. وشـددوا الحـراسـة على سكة الحـديد وعـربات وقـاطرات الشـركـة ومـخـازن الدّيناميت والمقتصديّة.

ولكن العمال لم يلتفتوا لكل هذه الأشياء بل واصلوا اجتماعاتهم في السـاحـات العـامـة وفي الشـوارع وأمـام الإدارة. تحـدثوا عن عـرقـهم الذي شـربه التـراب وعن جُهـدهم الذي رحَّلته الشـركـة في عـربات تذهب إلى

ميناء «صفاقس» ملأى بالتعب والإرهاق وتعود محمّلة بالخيرات السبعة التي تُعرض في فترينات المقتصدية: موز وأناناس وتفاح وعنب وفراولة وجوز وإجّاص «وهات الفرنك يا متعوس! أو شوف وموت بلقلبك!».

يشاهد العمال وأطفالهم هذه الخيرات ولكنهم لا يقدرون على لمسها فيكتفون بالنظر إليها من بعيد والحديث معها من وراء الزجاج ووصفها إلى الأهل والأحباب وتخمين طعمها والحلم بها في ليالي الشتاء الطويلة.

وسبّ العمّال جشع الشركة بكلّ لغات العالم من العربية إلى الفرنسية مرورًا بالأمازيغية والإيطالية والبولونية. وتهجّموا على مديرها الذي ظن نفسه هابطًا من السماء. ولَدَه الرب هناك وأنزله إلى الأرض بسلالم من ذهب ليتحكم في رقاب الخلق بتوكيل شخصي منه.

ومرّ المدير مرّة قريبًا من المضربين فرموه بالطماطم الفاسدة والبيض فتعثر في مشيته وارتبك وضاعت خطواته بين مدّ وجزر فضحكوا في قفاه وقهقهوا وهو ينسحب خاسئًا لا فرق بينه وبين بقية بني آدم.

فتأكدوا من أنه لم ينزل من السماء.

وأنه إنسان مثلهم وإن تَفَرْعَن وادّعى الربوبية. وسكن في قصر بَنَتْه الشركة بمقدار من المال كفيل برفع الفقر عن كاهل ألف عامل من عمّالها.

بعد أسبوع من الاجتماعات، عاد «زارّي» إلى تونس. ولكنه قبل أن يمضي إلى هناك. وأوصى «لجنة الإضراب» بعدم الرّد على نباح كلاب الشركة وبالامتناع عن توبيخ صوت صافرة المنجم التي تدعو كل صباح بزعيقها الموجع، السواعد إلى ظلام الأنفاق.

## (3)

وبدأت المؤونة تنفدُ في بعض المنازل. فشكل المضربون لجنة لجمع القمح والسكر والشاي والزيت والدقيق والشعير والبطاطا والفول والحمص والقهوة. وتفرّق الرجال داخل أحياء «الطرابلسية» و«المرّوك»

و«السوافه» و«الجريدية». وذهبوا إلى مضارب البدو: «أولاد بويحيي»، «أولاد سيدي عبيد» و«أولاد سلامة». فرجعوا محمّلين بغرائر القمح والشعير وبزغاريد البدويات وبدعاء الشّيخ بالفوز والنجاح.

واقترح «الحاج مرابط» على لجنة الإضراب الإشراف على طهي الطعام. فاتفقوا على أن تتكفل النساء بالطهي لكل حي على حدَة. وأن يأكل الكبار ما يسد الرمق ليوفروا للأطفال حاجاتهم.

وصار تحضير الطعام مناسبة أخرى للفرح والرقص والجنون وسبّ جدّ جدّ هذه الشركة الملعونة.

ودخل الإضراب أسبوعه الثالث دون أن تظهر بوادر لانفراج الأزمة. وصار مدير الشركة يهدد بطرد كل العمال الذين لن يلتحقوا بالعمل قبل يوم 3 ماي وبرمي أدباشهم خارج المساكن التي وفرتها لهم الشركة وكبُر التحدي في عيون النساء. صارت الأمّ تُهدْهد طفلها الصغير على رُكبتيها وتغني له: «نَنّي... نَنّي... جاك النوم» وتدفع الحطب تحت القدر لتلتهب النيران. ويرتفع اللهب. ويطير البُخار إلى سابع سماء. والأم تطهو في القدر الحصيات والحجارة.

والطفل الصغير ينام...

وينام الطفل الكبير...

وينام الطفل الأكبر...

فتضع الأمّ القدر على الأرض.

وتُهرقُ الماء السّخن.

وتستخرج من الطمي الحجارة والحصيات.

تخبّئ الأمّ الحصيات ذخيرة لليلة القادمة.

وتربط حجرًا على بطنها. وتنام.

وتظل الجدّة يقظة ترعى نجوم السماء.

حتى يصيح الدّيك.

ووصلت إعانة العمال الحديديين: ثلاثة آلاف فرنك.

إعانة للمحتاجين، من صفاقس وعنّابة. ولكن هل تقدر قطرة ماء على ريّ الأفواه العطشى؟ وهل يقدر فتات الخبز على ملء البطون الفارغة؟ فقد بدأت بوادر المجاعة بالظهور في جهات عدّة من أحياء المنجم. ولكن الرجال أصروا على تحدّي الشركة. ذهبوا إلى المقتصدية يشترون بمال الإعانة طعامًا للأطفال. فوجدوا أبوابها مغلقة.

وسألوا عن السبب فقيلَ لهم إن الشركة ترفض البيع للمضربين فاضطروا للشراء من السوق السوداء وبأسعار خيالية.

وبدأت نيران المواقد في الانطفاء.

وقلّ الرقص أمام النيران.

وزاد عدد الأمهات اللاتي يطبخن في قدورهن حصى للأطفال. وارتفعت نبرة السّب. فأغلقت الشركة مقهى «داتُوي» قال له «كُوميسار» المتلوي: «لقد تحولت مقهاك إلى وكر للمخرّبين وهذا أمرٌ من «المُقيم العام» بإغلاقها».

وجاء البناؤون فسدّوا أبوابها بالحجارة والأسمنت. وذهبوا دون أن يلتفتوا وراءهم.

وتحركت أعداد كبيرة من رجال الجندرمة في عُدّة القتال: الخوذة على الرأس، والتّرس في يد وهراوة غليظة في اليد الأخرى والبندقية على الكتف.

تجوّل الجندرمة في الشوارع وفرقوا الرجال المتجمهرين وطالبوهم بالبقاء في المنازل.

وتحدّى البعض هذه الأوامر فزُجَّ بهم في السّجن.

وارتفعت الاحتجاجات عاليًا في سماء قرية «المتلوي».

كانت عواميد من الاحتجاجات ترتفع كل ليلة في السماء على شكل نيران كبيرة تُحرق فيها أطنان من الخشب المعد لشد سقوف الأنفاق.

تطقطق النيران مصحوبة بالدخان الأسود واللهب فيُسمع زفيرها على بُعد عدة كيلومترات.

ويهرب النوم من سرير المدير

ويمتلئ بيت نومه بأنّات الجوعى.

وصرخات الجرحى.

وبكاء الأطفال.

وبعويل الثّكالى.

وبنظرات الموتى تحت الردم ساعة إخراجهم من رحم الأرض.

وانزعج المدير.

صارت عيون موتى انهيارات الجبل تُحاصره من جميع الجهات. أنّى يلتفت يراها تُحملقُ فيه مفجوعة بالموت الذي فاجأوها من حيث لا تدري.

عيون بربرية خضراء من جبال جرجرة الأطلسية.

وعيون سوداء كحيلة من طرابلس الغرب.

وعيون زرقاء تضطرب داخلها أمواج بحر طنجة.

وعيون عسلية بلون رمال السراب.

رأى داخل تلك العيون خرفانًا ترعى في السهول الخصبة أيام الربيع.

ورأى ضفائر الصبايا تترقب دقّ الطبل.

ورأى جمالاً ترعى وقت الضّراب سنة الصّابة.

فنادى مساعديه. طلب المدير منهم أن يستعدوا للسّفر إلى توزر.

قال لهم: «لم يبق لنا سوى زيارة مقام «سيدي المولدي» لعلّ ابنه «سيدي بوبكر» يتوسط بيني وبين هؤلاء الرجال فيفكون الإضراب».

وفي الحال أُعدّ قطار أُلحقتْ به عربة درجة أولى أُثّث بما يُريح المدير وأحد مساعديه ومترجمًا يُتقن العربية والفرنسية وشيوخ الزوايا المعتمدين لدى شركة صفاقس - قفصة. وتحرك القطار يقطع المهمه

الفاصل بين المتلوي وبلاد الجريد. والمدير يَعْجبُ لهذه الرحلة الغريبة ولصروف الدهر التي جعلته تحت رحمة هؤلاء الشيوخ المعمّمين ذوي الوجوه الشبيهة بوجه ابن آوى.

هكذا كان المدير يُحدّث نفسه وهو في مقصورته يستمع إلى قراءة القرآن والاستغفار، وذكر ربّ المسلمين إلى أن طالعته رؤوس النخيل وأهلّة المآذن. وعَلاَ صوتُ الأذان على هدير القاطرة. فترجّل المدير وسُحُبٌ من الحزن تُغطّي وجهه وتملأ قلبه بالكآبة.

وجد «عامل»(*) توزر في استقباله فسلم عليه وأمر جنود «الصّبايحية» فحركوا نحوه حصانًا أصيلاً يرفل في أبهى زينته.

امتطى المدير الحصان وسار الموكب إلى الزاوية «القادرية» تحفّ به وجوه القوم من جميع الجهات.

وجد المدير أمام «الزّاوية» خلقًا كثيرًا، وأعلامًا تُرفرفُ، وبنادير تُقرع، ورجالاً يقرأون «البُردة» و«المُنفرجة». ورأى الحواة من مُريدي سيدي «ابن عيسى» يلتهمون العقارب حيّة. ويقبّلون الأفاعي. ويبقرون بطونهم بالسكاكين والسيوف دون أن يُحدث لهم ذلك ألمًا. ويحرقون وجوههم بالنيران. ويتمرغون على المسامير. ويمشون على الجمر حفاة.

«فُرجة!» قال المدير. ليتها كانت بمناسبة عيد من أعياد فرنسا المجيدة.

واستقبل «سيدي بوبكر» المدير بترحاب كبير. وأهرق على كسوته قارورة عطر. فامتلأت الساحة بروائح الطّيب. وتهلل وجه المدير فقال إنه يحترم الزوايا ويُقدّر القائمين عليها حقّ قدرهم. وقد جاء اليوم للسلام على «الشّيخ» ولتقديم هبة لهذه الزاوية تُوزع على فقراء الجريد.

ودعا «الشّيخ» إلى التوسط بين «الشّركة» وعمالها لأن صوته مسموع بينهم ودعوته مُجابة.

(*) العامل: مسؤول بدرجة وال في العصر الحالي.

فجأة اكفهر وجه «الشّيخ» واسودت سحنته وقال بصوت يخنقه الغضب:

«نحنُ قوم لا دخل لنا في السياسة يا رجل! نحن فُقراء نعبُدُ الله ولا نُشرك به أحدًا. رعيّتنا ممن ترى من خلق الله. لنا عليهم حقّ السّمع والطاعة فيما لا يغضبه سبحانه وتعالى. أما رعيتك فدونك وإياها. أحسن إليها تسمعك! وأعطها حقها تُطعك!».

وذهب «الشّيخ» في حال سبيله. فسكتت البنادير. وسكنت الحركة. فكأن على رؤوس الحاضرين الطير.

قال المدير لمساعده: «تعال بنا نعود إلى «المتلوي» فلا أمل لنا في هذا الرجل يا صديقي.

## (4)

مرة أخرى، انتفخت بطون الأطفال. واستطالت أرجلهم وغارت عيونهم داخل المآقي. وغامتْ نظراتهم. واقترب الموت منهم خفية في بادئ الأمر. كان يختطفُ في اليوم ولدًا واحدًا أو بنتًا رضيعة. ثم صار يتجرأ على الأهل في واضحة النهار. فيختار من الأطفال من يشاء. ويذهب في حال سبيله دون أن يدفع ثمنًا للوالد المفجوع والوالدة الملتاعة.

وتهرّأت غرائر القمح. وجفّت خوابي الزيت. ونفد السّكر والشاي. وصارت نظرات من بقي حيّا من الأطفال تطعن في قلوب الأهل بلا رحمة فتدميها. والإضراب عن العمل يقترب من الأسبوع الخامس. وربّ الشركة عاد إلى مواقعه القديمة. والمقبرة امتلأت بالقبور الصغيرة. والمدير غلّف قلبه بشرّ مستطير. أحسّ بالإهانة التي كالها له شيخ الزاوية القادريّة فلعن من دلّه عليه. ولعنَ نفسه التي انساقت وراء تلك النزوة الرّعناء. واعتزل مستشاريه. وأحرق سفنه. وتمترس وراء رفض

الحوار مع النقابة. شعاره عودة لا مشروطة إلى العمل. وطردُ المحرضين على الإضراب.

وجاءته النجدة من «المُراقب المدني» الذي أصدر قرارًا يمنع «زَارّي» العائد لتوه من «تونس» من الاجتماع بالعمال. ويهدده بإطلاق النار على المتظاهرين إذا خرجوا إلى الشّوارع.

وأُسقط في أيدي الرجال وبدأ اليأس في التسرب إلى القلوب بعد أن انطفأت آخر نيران المواقد فخرج «السوافة» إلى السوق يعرضون أسمالهم للبيع وبيوتهم للرّهن لعلّهم يقدرون على توفير ثمن تذكرة تعود بهم إلى مداشر وادي «سُوفْ».

وعاد «الجريديّة» إلى أوطانهم مشيًا على الأقدام.

وتفرّق «المغاربة» و«الطرابلسيّة» في الفجاج إلى أن وصلوا إلى «المكناسي» وإلى زياتين الساحل. فَقَرَّ قرارُهم هناك وراحوا يترقبون ساعة الفرج.

وربّ الشركة يزمجر هادرًا:

- ألم أقل لكم إنني الجبار، المتكبر، المانحُ، المانعُ، وإنني شديد العقاب.

فيترددُ صوته في الوهاد والجبال. ويرتفع إلى عنان السماء. ثم يبدأ في الفحيح والتلاشي إلى أن يذوب في ملكوت الربّ.

(5)

دام الإضراب أربعين يومًا، ثم انفراط العقد.

واحدًا وراء واحد، تسلل العمال إلى المنجم.

ذهبوا ليلاً في الأول حتّى لا يفضحهم نور الشمس. وظلوا واقفين أمام أبواب الأنفاق المُوصدة بقضبان حديدية غليظة. ولم يفتح لهم أحد الأبواب. فعادوا بحسرة ما بعدها حسرة.

الخِزْي يُلطّخُ وجوههم.

والعار يمشي بين خُطاهم.

وأقسموا ألا يعودوا إلى الوقوف أمام تلك الأبواب مرّة أخرى. ولكنهم، في الليلة التالية كانوا يقفون أمامها وبأعداد أكبر. ولم يلتفت أحد إلى وقوفهم.

وظلّوا يذهبون ليلاً، ويعودون في الصباح الباكر إلى الديار، دون أن تئز الأبواب التي ركبها الصدأ في وجوههم، إلى أن كاد الهلاك يحطّ على القلوب.

كانوا يتخبّطون كالعميان، حين نادى المُنادي يُعلنُ أنّ الشركة ستَنْتَدبُ عمّالها من جديد. وأنها لن تقبل إلا من ترضى عنه الإدارة.

والحاضر يُبلّغ الغائب.

في الصباح، كان طابور من العمال يقف أمام باب الإدارة. الطابور طويل، طويل. أطول من يوم القيامة.

والباب قصير، قصير. لا يزيد ارتفاعه عن المتر الواحد.

وكان الحاجب الواقف أمام الباب يُجبر العامل المارّ فوق السّراط على الانحناء، حتّى تكاد جبهته تلمس الأرض. ثم يطلبُ منه أن يَلْعَنَ النّقابة ثلاثة، وبصوت عال.

وكان الرّب واقفاً بجلاله وراء شرفه الإدارة، يُراقب من وراء الزجاج الطابور وهو يتقدمُ بخطى بطيئة.

ظلّ يُراقب المشهد كامل النهار، وشبح ابتسامة باهتة مرسوم على شفتيه.

أم العرائس/ قفصة

جانفي 1999

ديسمبر 2001

# المـؤلـف

- **إبراهيم درغوثي**
- قاص وروائي تونسي
- مولود في 1955/12/21 بالمحاسن من بلاد الجريد
- **صدر له :**

**١ - الروايات:**

- الدراويش يعودون إلى المنفى (1992)
- القيامة.. الآن (1994)
- شبابيك منتصف الليّل (1996)
- أسرار صاحب السّتر (1998)
- وراء السراب.. قليلا (ط1 : 2002/ ط2: 2005)

**٢ - القصص القصيرة:**

- النّخل يموت واقفًا (1989)
- الخبز المرّ (1990)
- رجل محترم جدًا (1995)
- كأسك... يا مطر (1997)

- ترجمت بعض قصصه ورواياته إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية.




وقفت مذهولاً أمام باب النفق الذي سأجتازه للوصول إلى أعماق الجبل. وتذكرت ما مرّ بي من وقائع فقلت في نفسي ستكون نهاية مغامرتك في الحياة في هذا الجُبّ.

وتسلّمني «مرزاق القبائلي» ليعلّمني كيف أحفر بالمثقاب حفرًا في لحم الجبل. وكيف أدسّ الديناميت في تلك الحفر. وكيف أفجّر تلك الأصابع الرقيقة التي تحدث دويًا كدويّ الرعد. وعلّمني كيف أكون شجاعًا دون تهوّر لأنّ أحابيل سلطان الجبل لا تحصى ولا تعدّ وسيف ملك الموت معلّق فوق رءوسنا لا ندري متى ينزل فيقصّ الرّقاب ويفشخ الهامات.



رأيتُ نساء البدو القاطنين في المداشر القريبة يتقاتلن قرب صهاريج الماء. ويتقاذفن بالسباب والسطول وبالكلام البذيء. ولا يهدأن إلا حين يطلّ ناظر المحطة بكسوته الشبيهة بلباس الجندرمة. فينهرهُن ويطردهنّ بعد أن يحكم إغلاق حنفيات الماء.

وغير بعيد عن المحطة، تسكنُ بنات «أولاد نائل». عشر بنات جاء بهنّ واحد من متعهّدي الانتدابات الذين أرسلتهم السلطات الفرنسية لجلب العمال من الجزائر والمغرب فعاد ومعه هؤلاء البنات. وأعجبت الفكرة مسئولي الشركة فأقطعوهنّ دارًا بعيدة عن الأحياء المأهولة بالسكان المسلمين. وألزموهنّ بالعمل لفائدة الشركة. وبعدم الامتناع عن كل طالب لذّة على أن يدفع بالحاضر ومسبقًا.

